إِتحَافُ البَشَرِ بِبَيَانِ بَعضِ أَسبَابِ انشِرَاحِ الصَّدرِ

فَصلٌ مَهِمٌّ مُستَلٌّ مِن كِتَابِ "زَاد المَعَاد"

لابنِ قَيِّم الجَوزِيَّةِ

(691 - 751 هـ)

وَيَلِيهِ

أُرجُوزَةُ نَثرُ الزَّهرِ فِي أَسبَابِ انشِرَاحِ الصَّدرِ

لمحمد آل رحاب

تقديم

الشَّيخ عزّ الدِّين رَمضَاني

اعتَنَى بِهَا

أبو عبد الرحمن اسماعيل بن عمر الجزائري

تقديم الشَّيخ عزّ الدِّين رَمضَاني[1]- حفظه الله ورعاه -

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

الحمد لله وحده والصَّلاةُ والسَّلام على مَن لا نبِيَّ بَعده.

فهذه المجموعة المباركة مِن سِلسلةِ؛ " تقريب المُتون العِلمية " لمُعدِّها والمعتَني بِها الأخ الفاضل؛ طالبُ العلم النَّجيب[2]: أبو عبد الرَّحمن اسماعيل بن عمر الجزائري، جُهدٌ يَنضاف إلى حلقات طُلاَّب العِلم، ودُرَّة ثَمِينة لِمَن رامَ الطَّلَب والتَّحصِيلَ على أُسسٍ مَتِينةٍ، وقَواعدَ رَاسخَةٍ، ومَفاهِيمَ مُؤصَّلَةٍ، وسَبيلٍ واضِحةٍ، وَفقَ مَنهج مُحقَّقٍ وعِلمٍ مُدَقَّقٍ، تَسيرُ بِصاحِبِها فِي رَكب أئمَّة السُّنَّةِ ودُعاةِ الحَقِّ والهُدى.

وقد اجتَهدَ الأخُ الفاضلُ - حفظَه الله - في إخرَاجِها في صورةٍ بَهيَّة خطًّا وتَشكيلاً، حَيثُ اعتَمدَ على بعضِ النُّسخِ الخَطِّيَّةِ مع إثباتِ نِسبَتِها إلى صاحِبِها، وقد أبانَ عن مَنهَجِه في العمل على ذلكَ المَتنِ أوِ النَّظم، ويَجدُ القَارئ لِبَعضِ هذهِ المُتونِ نَظماً مُوافقاً للمَنثُورِ، لِتَقرِيب الفَنِّ وتَدريبِ الطَّالب على تَرسيخِ مَعلُومِه وضَبطِ مَحفُوظِه.

واللهَ الكَريمَ أسألُ أَن ينفَعَ بِهَا مُعِدَّها وَقَارِئَها وحَافِظَهَا وشَارِحَها ومُوزِّعَهَا، وكُلَّ مَن أَعانَ على نَشرِهَا وأَسهَمَ فِي تَعمِيمِ الفَائدةِ بِهَا،

(1) شيخُنا الفاضل ارتبط بالعلم والدعوة وارتبطت به، حتى أصبح فيها وبها أشهر مِن نار على علم، شيخ في الخطابة والتَّدريس، وشيخ في التَّعليم والتَّربية، وشيخ في الأدب والخلق، وشيخ في المنهج والاعتقاد، وشيخ في التَّفسير وعلومه، والحديث وفنونه، والفقه أصوله وفروعه..، زاده الله علما وعملا ودعوة، ورزقنا الانتفاع منه وبه، وإنَّا معاشر الطَّلبة في حقِّه لمقصِّرون، فالأدب الأدب رعاكم الله مع مشايخنا في القول والفعل، عند حضورهم وحال غيابهم، فذلك من بركة العلم وأثر تعظيم أهله.

(2) هذا مِن حُسن ظنِّ الشيخ بي وإلا فالله يعلم أنِّي ضعيف في الطَّلب، ضعيف في العمل، ضعيف في الدعوة..، واللهَ أسأل أن يتجاوز عنِّي وعن كل مقصر، وهذا أقوله بيانا لحقيقة الحال، ومعرفة بقدر التَّفريط والتَّقصير، وليس تواضعا أو تورعا...

إنَّه سُبحانه جوادٌ كَريمٌ.

وصَلَّى الله وسلَّم وبارِكَ على نَبيِّنا مُحمَّد وعلَى آلِه وصَحبِه.

وَكَتبَ

أَبُو عبدِ اللهِ عزّ الدِّين رَمضَاني

عشيَّة الأَحد 20 من ذي الحجة 1436 هـ

المُوافِق لـ 4 من أُكتوبر سنة 2015 م

بِسمِ اللَّهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيم

المُقَدِّمَةُ

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُه ونَستَعِينه ونستَغفِرِه، ونعوذُ باللهِ مِن شُرور أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَن يَهدِه الله فلا مُضلَّ له، ومَن يُضلِل فلا هَادي له.

وأشهدُ أنّ لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدا عبدُه ورسولُه.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) سورة النساء، الآية: 1.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) سورة آل عمران، الآية: 102.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) سورة الأحزاب، الآيتان: 70، 71.

أمَّا بَعدُ:

فإنَّ أَصدقَ الحَدِيثِ كَلامُ اللهِ، وَخَيرَ الهَدي هَديُ مُحمَّدٍ صلَّى الله عَلَيهِ

وسلَّم، وشَرَّ الأُمُورِ مُحدَثَاتُها، وكُلَّ مُحدَثَةٍ بِدعَةٌ، وَكُلَّ بِدعَةٍ ضَلاَلَةٌ، وكُلَّ ضَلالَةٍ في النَّارِ.

فَمَعَ انتِشارِ الحُزنِ والهَمِّ والقَلَقِ والغَمِّ بَينَ النَّاسِ عُمُومًا وَالمُسلِمِينَ خُصُوصًا حتَّى أَصبحَ عَلاَمَةً مُمَيِّزَةً وَسِمَةً فَارِقَةً لِأَهلِ هَذِهِ الأَزمَانِ ـ إلاَّ مَن رَحِمَ اللهُ وَقَلِيلٌ مَا هُم ـ، مَعَ وُجُودِ دَواءِ هَذَا الدَّاءِ المُنتشِرِ فِي مُتنَاوَلِ أَيدِيهِم، لَكنَّ الجَهلَ والغَفلَةَ وَحُبَّ الدُّنيَا وَالِانشِغَالَ بِهَا صَدَّهُم عَن استِعمَالِ ذَلِكَ الدَّواءِ النَّافِعِ الوَارِدِ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وآثَارِ سَلَفِ الأُمَّةِ وأَقوَالِ عُلَمَاءِ الأُمَّةِ، (نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) الحَشْر:19، وَفِي سَبِيلِ تَيسِيرِ هَذَا البَابِ مِن العِلمِ، فَبعدَمَا أَن اعتَنَيتُ بِكتَابِ الشَّيخِ عَبدِ الرَّحمَن السَّعدِي النَّافِع؛ " الوَسَائِلُ المُفِيدَةُ لِلحَيَاةِ السَّعِيدَةِ"، فَأَنَا ذَا أُقَدِّمُ هَذَا الدَّوَاءَ النَّافِعَ وَهُوَ عِبَارَةٌ عَن تَركِيبَةٍ طِبِّيَّةٍ أَبدَعَتهَا يَرَاعَةُ طَبِيبِ القُلُوبِ ابنُ قيِّم الجَوزِيَّةِ اِستَخلَصَهَا مِن نُورِ الوَحيَينِ.

○ **وَعَمَلِي المُتَوَاضِعُ علَى هذه الرِّسالةِ الطَّيِّبَةِ يَتَمثَّلُ فِي:**

1. ضَبطِ نصِّ الرِّسَالَةِ بِمُقَابَلَتِها على عِدَّةِ نُسخٍ مَطبوعةٍ، دُونَ إِثباتِ الفُروقِ الضّئيلةِ الوَاقعةِ بَينَ النُّسخِ خُصُوصاً وأَنَّهُ لاَ يُحِيلُ المَعنَى، حتَّى لا أُثَقِّل الحَواشِي بما قد تَكونُ فَائِدَتُه قَلِيلَةٌ.

2. تَقسِيمِ نصِّ الرِّسَالَةِ إِلَى فَقراتٍ مُتباينةٍ، المَقصُودُ منها التَّقرِيبُ وَالتَّيسِيرُ.

3. تَشكيلِ النَّصِّ تَشكِيلاً أظنُّه تَامًّا، لِتَقريبِ هذِه الرسالة لِعَامَّة المُسلِمِينَ، فَعَدمُ تَشكِيلِ النَّصِّ يَحُولُ ـ فِي أكثرِ الأَحيانِ ـ بينَ الكتُبِ وبينَ استِفادةِ النَّاسِ مِنها، مَعَ إثباتِ بَعض التَّعلِيقاتِ النَّافِعَةِ فِي الهَامشِ لِحُسنِ تَصوُّرِ المَسَائِلِ وتَمَامِ الِانتِفاعِ بِهَا.

4. وَضعِ مُقدِّمةٍ مُوضِّحةٍ لمنهَجِ التَّحقيقِ.
5. تَخريجِ الأحـــــــــاديثِ والآثــار الوَارِدةِ فِي الـمتـنِ، مع بـيـانِ مَرتَــبتِها وفق الصَّنعة الحديثية، على وجـهِ الإشـارةِ والاِختـــــصارِ إلاَّ عند الحاجة.
6. وَضعِ تَرجمةٍ مُوجَزةٍ لِصَاحبِ الرِّسالةِ فَهُوَ أَشهَرُ مِن أَن يُعرَّفَ بمثِلهِ.
7. وضعِ تَعريفٍ بِالرِّسَالَةِ يُبَيِّنُ مَوضُوعَهَا، وَيُقَرِّبُ مَرَامَهَا، بِأَلطَفِ عِبَارةٍ وَأقرَبِ إِشَارةٍ، مَعَ الاِعتِنَاءِ كَما هُو دَائِما الحَالُ فِي هذِهِ السِّلسِلَةِ " تَقرِيبُ المُتُونِ العِلمِيَّةِ " بِبَيَانِ طَبَعَاتِهَا وشُرُوحَاتِ وأَعمَالِ أهلِ العلمِ عَليهَا..، و مَا يَتبَعُ ذَلِكَ ويَلحَقُه مِمَّا لاَ غِنَى لِطَالِبِ العِلمِ عَنهُ فِي سَيرِهِ لِطَلَبِ العِلمِ ورَفعِ الجَهلِ..

وَاللهَ أَسأَلُ أَن يَنفَعَ بِهَا وَيَجعَلَهَا فِي مِيزَانِ حَسنَاتِي يَومَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَن أَتَى اللهَ بِقَلبٍ سَلِيمٍ.

كَتبَهُ:

أَبو عبدِ الرَّحمن إِسماعيل ابنُ عمر الجزائري

صباح الإثنين 23 من شوال سنة (1441) هـ

بحي عين النعجة، الجزائر العاصمة

التَّعرِيفُ بِالمؤلِّفِ

ـ اِسمُهُ وَكُنيَتُهُ:
هُو أَبُو عَبدِ اللهِ مُحمَّدُ بنُ أَبِي بَكرٍ بنِ أَيُّوبَ بنِ سَعدِ الزُّرعِي ثُمَّ الدِّمَشقِي.
ـ لَقَبُهُ:
شَمسُ الدِّينِ، وَاشتَهَرَ بِلَقَبه (ابنُ القَيِّمِ) أَو (ابنُ قَيِّمِ الجَوزِيَّةِ)، أَو (إِمَامُ الجَوزِيَّةِ)، وَنِسبَتُهُ إِلَى الجَوزِيَّةِ تَرجِعُ إِلَى أَنَّ وَالِدَهُ كَانَ قَيِّمًا علَى تِلكَ المَدرَسَةِ.
وَالقَيِّمُ: الَّذِي يُقِيمُ الأَمرَ وَيُصلِحُهُ ويَرعَاهُ ويَجعَلُهُ مُستَقِيمًا، فَأبُو الإمامِ كانَ يُدِيرُ شُؤونِ المَدرَسِةِ الَّتي اسمُهَا الجَوزِيَّة؛ فَنُسِبَ إِلَيهَا بابنِ قَيِّمِ الجَوزِيَّةِ، يقُولُ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ:" إنَّ مُحيِ الدِّينِ يُوسُفُ بنُ عَبدِ الرَّحمَنِ بن عَلِي بنِ مُحمَّد الجَوزِي، هُوَ الَّذِي ابتَنَى هَذِهِ المَدرَسَةَ بِالنَّشَّابِينَ بِدِمَشق وأَوقَفَ لَهَا".
أَوقفَ لَهَا يَعنِي: خَصَّصَ بَعضَ العَقَّارَاتِ وَغيرَهَا مِمَّا يُدِرُّ الأَموَالَ، لِكَي يَنتَفِعَ القَائِمُونَ عَلَيهَا، وَلِإِصلاَحِ شَأنِ المَدرَسَةِ وَتَأمِينِ حَوَائِجِهَا.
الفَقِيهُ الحَنبَلِيُّ.
ـ مَولِدُهُ:
وُلِدَ بِدِمَشق فِي السَّابعِ مِن شَهرِ صَفَر سَنةَ سِتمائة وَوَاحِدٍ وتِسعِينَ (691هـ).
ـ نَشأَتُهُ:
نَشَأَ فِي بَيتِ عِلمٍ وفَضلٍ، فَقَد كَانَ أَبُوهُ قَائِمًا بِالمَدرَسَةِ الجَوزِيَّةِ كمَا سَبَقَ، وكانَ أَبُوهُ مِن فُقَهَاءِ الحَنَابِلَةِ المَشهُورِينَ، وكَانَ لَهُ فِي الفَرَائض يَدًا، فَأَخذَهَا عَنهُ، ونَشَأَ فِي زَمَنٍ يَزخَرُ بِالعُلَمَاءِ البَارِزِينَ.
ـ مِن شُيُوخِهِ: مِن أَبرَزِهِم؛

ـ شَيخُ الإِسلاَمِ ابنُ تِيمِيةَ، فلمَّا عادَ الشَّيخُ ابنُ تَيمِية مِن الدِّيَارِ المِصرِيَّةِ فِي سنةِ 712هـ لاَزَمَهُ إلَى أَن مَاتَ الشَّيخُ، فأَخَذَ عَنهُ عِلمًا جَمًّا.
ـ والحَافظُ المِزيّ، وغيرهم.

ـ من تَلاَمِذَتِهِ: وَممَّنَ أَخَذَ عَنهُ؛
ـ وَلَدَاهُ عَبدُ اللهِ، وإبرَاهِيمُ.
ـ والحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ.
ـ وَالحَافظُ الذَّهَبِيّ.
ـ والحَافِظُ ابنُ رَجَبٍ.
ـ وابنُ عبدِ الهَادِي.
ـ والفَيرُوز آبَادِي.
وغَيرُهُم مِن فُضَلاَءِ العُلَمَاءِ.

ـ من ثَنَاءَ العُلمَاءِ عَلَيهِ:

ـ فِي عِلمِهِ:

ـ قَالَ ابنُ العِمَادِ:" هُو المُجتَهِدُ المُطلَقُ ".
ـ وقَالَ الحَافِظُ ابنُ رَجَبٍ:" شَيخُنَا الفَقِيهُ الأُصُولِيُّ المُفَسِّرُ النَّحوِي العَارِفُ، تَفَقَّهَ فِي المَذهَبِ وَبَرَعَ وَأَفتَى، لاَزَمَ الشَّيخَ تَقيَّ الدِّينِ ابن تَيمِية وأخَذَ عَنهُ وتَفَنَّنَ فِي كَافَّةِ عُلُومِ الإِسلاَمِ، وكانَ عَارِفاً في التَّفسِيرِ لاَ يُجَارَ فِيهِ، وعَالِماً بِأُصُولِ الدِّينِ وَإِلَيهِ فِيهَا المُنتَهَى، وبِالحَدِيثِ ومَعَانِيهِ وفِقهِهِ ودَقَائِقِ الاِستِنبَاطِ مِنهُ، لاَ يُلحَقُ فِي ذَلِكَ، وبِاللُّغَةِ وَالأُصُولِ وَالعَرَبِيَّةِ ولَهُ فِيهَا اليَدُ الطُّولَى، ولاَ رَأَيتُ أَوسَعَ مِنهُ عِلمًا، وَلاَ أَعْرَفَ بِمَعَانِي القُرآنِ والسُّنَّةِ وَحقَائِقِ الإِيمَانِ مِنهُ، ولَيسَ هُو المَعصُومُ؛ ولَكِن لَم أَرَ فِي مَعنَاهُ مِثلَهُ ".
ـ وقَالَ القَاضِي بُرهان الدِّينِ الزُّرَعِي:" مَا تَحتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ أَوسَعَ عِلماً مِنهُ ".

- وَقالَ الحَافِظُ ابنُ حَجَرٍ:" كَانَ وَاسِعَ العِلمِ عَارِفاً بِالخِلافِ ومَذَاهِبِ السَّلَفِ ".

- وَقَالَ ابنُ كَثِيرٍ:" بَرَعَ فِي عُلُومٍ مُتَعَدِّدَةٍ لاَ سِيمَا علمَ التَّفسِيرِ والحَدِيثِ، ولازَمَ ابنَ تَيمِية إلَى أَن ماتَ الشَّيخُ، فَأخذَ عَنهُ عِلمًا جَمًّا - مَعَ مَا سلفَ لَهُ مِنَ الاشتِغَالِ - فصَارَ فَرِيدًا فِي بَابِهِ فِي فُنُونٍ كَثِيرَةٍ، مَعَ كَثرَةِ الطَّلَبِ لَيلًا ونَهَارًا وكَثرَةِ الابتِهَالِ، وبِالجُملَةِ كَانَ قَلِيلَ النَّظِيرِ فِي مَجمُوعِ أُمُورِهِ وأَحوَالِهِ ".

- فِي خُلُقِهِ:

- قَالَ ابنُ كَثِير:" كَانَ حَسَنَ القِرَاءَةِ، والخُلُقِ، كَثِيرَ التَّوَدُّدِ، لَا يَحسُدُ أَحدًا وَلاَ يُؤذِيهِ وَلاَ يَستَعِيبُهُ، ولاَ يَحقِدُ عَلَى أَحَدٍ، وكُنتُ مِن أَصحَبِ النَّاسِ لَهُ وأَحَبَّ النَّاسِ إِلَيهِ ".

- فِي عِبَادَتِهِ:

- قالَ ابنُ رَجَبٍ: "وَكَانَ رَحِمَهُ اللهُ ذَا عِبَادَةٍ وتَهَجُّدٍ وطُولِ صَلاَةٍ إِلَى الغَايَةِ القُصوَى، وتَأَلُّهٍ ولَهَجٍ بِالذِّكرِ وَشَغَفٍ بِالمَحَبَّةِ وَالإِنَابَةِ والاستِغفَارِ وَالافتِقَارِ إِلَى اللهِ وَالانكِسَارِ لَهُ، وَالاطِّرَاحِ بَينَ يَدَيهِ علَى عَتَبَةِ عُبُودِيَّتِهِ؛ لَم أُشَاهِد مِثلَهُ فِي ذَلِكَ.

وكَانَ فِي مُدَّةِ حَبسِهِ مُشتَغِلًا بِتِلاوَةِ القُرآنِ بِالتَّدَبُّرِ والتَّفَكُّرِ فَفُتِحَ عَلَيهِ مِن ذَلِكَ خَيرٌ كَثِيرٌ.

وَحَجَّ مَرَّاتٍ كَثِيرَةٍ، وجَاوَرَ بِمَكَّةَ، وكَانَ أَهلُ مَكَّةَ يَذكُرُونَ عَنهُ مِن شِدَّةِ العِبَادَةِ وكَثرَةِ الطَّوَافِ أَمرًا يُتَعَجَّبُ مِنهُ".

- قَالَ ابنُ كَثِيرٍ: كَانَ كَثِيرَ الابتِهَالِ..، ولاَ أَعرِفُ فِي هَذَا العَالَمِ فِي زَمَانِنَا أَكثَرَ عِبَادةً مِنهُ، وكَانَت لَهُ طَرِيقَةٌ فِي الصَّلاَةِ؛ يُطِيلُهَا جِدًّا وَيَمُدُّ رُكُوعَهَا وسُجُودَهَا، ويَلُومُهُ كَثِيرٌ مِن أَصحَابِهِ فِي بَعضِ الأَحيَانِ، فَلاَ يَرجِعُ وَلاَ يَنزِعُ عَن ذَلِكَ.

- مُؤَلَّفَاتُهُ:

- قَالَ ابنُ كَثِيرٍ:" لَهُ مِنَ التَّصَانِيفِ الكِبَارِ وَالصِّغَارِ شَيءٌ كَثِيرٌ، وكَتَبَ بِخَطِّهِ الحَسَنِ شيئًا كثيرًا، واقتَنَى مِنَ الكُتُبِ مَا لاَ يَتَهيَّأ لِغَيرِهِ تَحصِيلُ عُشرِهِ مِن كُتُبِ السَّلَفِ وَالخَلَفِ ".

قَالَ ابنُ رَجَبٍ:" وَصَنَّفَ تَصَانِيفَ كَثِيرَةٍ جِدًا فِي أَنوَاعِ العِلمِ، وكَانَ شَدِيدَ المَحَبَّةِ لِلعِلمِ وكِتَابَتِهِ وَمُطَالَعَتِهِ وتَصنِيفِهِ، واقتِنَاءِ الكُتُبِ ".

قالَ الحَافِظُ ابنُ حَجَرٍ:" وَكُلُّ تَصَانِيفِهِ مَرغُوبٌ فِيهَا بَينَ الطَّوَائِفِ، وَهُوَ طَوِيلُ النَّفَسِ فِيهَا؛ يَتعَانَى الإِيضَاحَ جُهدَهُ؛ فَيُسهِبُ جِدًّا، وكَانَ مُغرَمًا بِجَمعِ الكُتُبِ؛ فَحَصَّلَ مِنهَا مَا لاَ يُحصَرُ، حتَّى كَانَ أَولاَدُهُ يَبِيعُونَ مِنهَا بَعدَ مَوتِهِ دَهرًا طَوِيلاً، سِوَى مَا اصطَفَوهُ مِنهَا لِأَنفُسِهِم ".

- مِن تَصَانِيفِهِ:

- رَوضَةُ المُحِبِّينَ ونُزهَةُ المُشتَاقِينَ، (مطبوع).
- زَادُ المَعَادِ فِي هَديِ خَيرِ العِبَادِ، (مطبوع).
- إِعلاَمُ المُوقِّعِينَ عَن رَبِّ العَالَمِينَ. (مطبوع).
- تَهذِيبُ سُنَنِ أَبِي دَاوُد. (مطبوع).
- 00الجُيُوشُ الإِسلاَمِيَّة علَى حَربِ المُعَطِّلَةِ وَالجَهمِيَّةِ. (مطبوع).
- الطُّرُقُ الحُكمِيَّةُ فِي السِّيَاسَةِ الشَّرعِيَّةِ. (مطبوع).
- شِفَاءُ العَلِيلِ فِي مَسَائِلِ القَضَاءِ والقَدَرِ والحِكمَةِ وَالتَّعلِيلِ. (مطبوع).
- كَشفُ الغِطَاءِ عَن حُكمِ سَمَاعِ الغِنَاءِ. (طُبِعِ بِاسمِ الكَلاَمُ علَى مَسأَلَةِ السَّمَاعِ).
- أَحكَامُ أَهلِ الذِّمَّةِ. (مطبوع).
- تُحفَةُ المَودُودِ بِأحكَامِ المَولُودِ. (مطبوع).
- مِفتَاحُ دَارِ السَّعَادَةِ. (مطبوع).
- الصَّوَاعِقُ المُرسَلَةُ عَلَى الجَهميَّةِ والمُعَطِّلَةِ. (مطبوع).

- الكَافِيَةُ الشَّافِيَةُ. (وَالمَشهُورَةُ بِالقَصِيدَةِ النُّونِيَّةِ، مطبوع).
- مَدَارِجُ السَّالِكِينَ. (مطبوع).
- الفُرُوسِيَّةُ. (مطبوع).
- الوَابِلُ الصَّيِّبُ مِنَ الكَلاَمِ الطَّيِّبِ. (مطبوع).
- الرُّوحُ. (مطبوع).
- الفَوَائِدُ. (مطبوع).
- حَادِي الأَروَاحِ إِلَى بِلاَدِ الأَفرَاحِ. (مطبوع).
- إِغَاثَةُ اللَّهفَانِ مِن مَصَائِدِ الشَّيطَانِ. (مطبوع).
- الجَوَابُ الكَافِي أَو المَشهُورُ بِـ الدَّاءِ والدَّوَاءِ. (مطبوع).
- التِّبيَانُ فِي أَقسَامِ القُرآنِ. (مطبوع).
- طَرِيقُ الهِجرَتَينِ أَو (طَرِيقُ السَّعَادَتَينِ). (مطبوع).
- عِدَةُ الصَّابِرِينَ. (مطبوع).
- هِدَايَةُ الحَيَارَى فِي أَجوِبَةِ اليَهُودِ والنَّصَارَى. (مطبوع).
- بَدَائِعُ الفَوَائِدِ. (مطبوع).
- جَلاَءُ الأَفهَامِ فِي الصَّلاَةِ والسَّلامِ علَى خَيرِ الأَنَامِ. (مطبوع).
- رَفعُ اليَدَينِ فِي الصَّلاَةِ. (مطبوع).
- المَنَارُ المُنِيفُ فِي الصَّحِيحِ والضَّعِيفِ. (مطبوع).
- حُكمُ تَارِكِ الصَّلاَةِ. (طُبِعَ بِاسمِ الصَّلاَةُ وحُكمُ تَارِكِهَا).
- إِغَاثَةُ اللَّهفَانِ فِي طَلاَقِ الغَضبَانِ. (مطبوع).
- أَمثَالُ القُرآنِ. (مطبوع).
- الرِّسَالَةُ التَّبوكِيَّةُ (مطبوع).
- رِسَالَةُ ابنُ القَيِّمِ إِلَى أَحَدِ إِخوَانِهِ. (مطبوع).

- وَفَاتُهُ:

تُوفِّيَ رَحِمَهُ اللهُ لَيلةَ الخَمِيسِ 23 مِن رَجَب سَنَةَ (751)هـ، ودُفِنَ بِدِمَشق بِمَقبَرَةِ البَابِ الصَّغِيرِ.

- مِن مَصَادِرِ التَّرجَمَةِ:

- "ذيل طبقات الحنابلة" ابن رَجَب (447/2).
- "شذرات الذهب" لابن العِماد (168/6).
- "البداية والنِّهاية" لابن كَثِير (234/14).
- "الدرر الكامنة" لابن حَجَر (4/21-23).
- "الوافِي بالوَفَيَات" للصّفَدي (270/2).
- "بُغيَةُ الوُعَاة" للسُّيُوطِي (62/1)
- "البدر الطَّالع" للشَّوكَاني (134/2).
- "التَّاجُ المُكَلَّل" صِدِّيق حَسَن خان (ص 416).
- "طبقات المُفسِّرِين" للدَّاوُودِي (93/2)

التَّعرِيفُ بِالمُؤَلِّـفِ

○ بيانُ اسمِ الكتابِ ومَعنَـــــاهُ:

اسمُ الكِتابِ مُستَخرَجٌ؛
ـ مِن تَسمِيَةِ ابنِ قَيِّمِ الجَوزِيَّةِ لِفَصلٍ مِن كِتَابِهِ المَاتِعِ "زَادُ المَعَادِ":
"فَصلٌ فِي أَسبَابِ شَرحِ الصَّدرِ، وَحُصُولِهَا عَلَى الكَمَالِ لَهُ صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ".
ـ وَمِن مَوضُوعِ الرِّسَالَةِ الَّذِي تَطَرَّقَ إِلَيهِ.

○ صِحَّةُ نِسبَتِهَا إِلَى مُؤَلِّفِهَا:

وهَذَا مُرتَبِطٌ بِصِحَّةِ نِسبَةِ الأَصلِ وَهُو "زادُ المعادِ"، وَشُهرَتُ نِسبَتِهِ إِلَى مُؤَلِّفِهِ تُغنِي عَن دِرَاسَةِ ذَلِكَ.

○ طَبَعَاتُ الكتابِ وَجُهُودُ العُلماءِ فِي خِدمَتِهِ:

والمَقصُودُ هُنَا؛ الفَصلُ المُستَقِلُّ المُستَلُّ مِن زَادِ المَعَادِ.
ولا أَعلَمُ أَحدًا طَبَعَهُ مُستَقِلاً إلاَّ مَا كَانَ مِن طَبعِ شَرحِ الشَّيخِ مُحمَّد أَمَان بن عَلِي الجَامِي عَن دارِ سَبِيلِ المُسلمِينَ، بِاعتِنَاءِ الشَّيخ أَبي همَّام محمَّد بن علي الصَّومَعِي البَيضَانِي، الطبعة الأولى (1431)هـ ـ (2010)م، حيثُ خصَّصَ جُزءً مِنَ الكِتابِ فِي إِيرَادِ هَذا الفصلِ مُستَقِلاً مِن الصَّفحَةِ 31 إلى 34.
أمَّا طَبعَاتُه ضِمنَ زَادِ المَعَاد فَطَبَعَاتٌ كَثِيرَةٌ مِن أَحسَنِهَا وأَفضَلِهَا طَبعَتَانِ:
ـ **الأولى:** طَبعَةُ دَارِ الرِّسالةِ؛ معَ قُصُورٍ فِي التَّحقِيقِ والنُّسَخِ المُعتَمَدَة (2/22 ـ28).
ـ **والثَّانِيَة:** طَبعَة دار عالم الفوائد، وأُعِيدَ طَبعُه عَن دار عطاءات العلم ودار ابن حزم (2/ 27 ـ33).

○مَوضُوعُ الكِتَابِ:

فَمَوضُوعُهُ وَاضِحُ جَلِيٌّ وَهُو مُتَعَلِّقُ بِبَحثِ سَبَبٍ مِن أَعظَمِ أَسبَابِ السَّعَادَةِ وهُو انشِرَاحُ الصَّدرِ والقَلبِ، وبَيَانُ كَيفِيَّةِ الظَّفَرِ بِهِ والسَّعي إِلَيهِ.

○شُرُوحَـاتُ الكِتَابِ:

وهي مُتَنوِّعةٌ؛ مِن حَيثُ الِاختِصارِ والطُّولِ، ومِن حيـــــثُ مَنهَجيَّةِ الشَّرحِ وأُسلُوبِ العَرضِ، ومِنها على سَبِيـــــلِ المِثالِ لا الحَصرِ:

أ- المَطبُوعَةُ:

1ـ شَرحُ الشَّيخ مُحمَّد بنِ أمَان علي الجَامِي (ت 1416)، طُبِع عن دار سبيل المؤمنين، الطَّبعة الأولى (1431)هـ - (2010)م، في حَوَالِي 92 صَفحَة.

ب- المَسمُوعَةُ:

1ـ شَرحُ الشَّيخ عبد الله البخاري في (5) أشرطة.
2ـ شرح الشَّيخ صالح بن سعد السُّحـيـمـي في شريطين.
3ـ شرح الشَّيخ عمر بن رشيد الزّبيدي في شريطين.

المتن

قَالَ العَلاَّمةُ الفَهَّامَةُ ابنُ قيِّم الجَوزِيَّة ـ رَحِمَهُ الله ـ في "زادِ المَعادِ فِي هَدِيِ خَيرِ العِبَادِ صلَّى الله عليه وسلَّم"؛ (2/ 27- 33) طبعة دار عطاءات العلم ودار ابن حزم (1440هـ -2019م)، و(2/22- 28) طبعة دار الرسالة:"...

ـ وَكَانَ هَدْيُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو إِلَى الْإِحْسَانِ وَالصَّدَقَةِ وَالْمَعْرُوفِ، وَلِذَلِكَ كَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أَشْرَحَ الْخَلْقِ صَدْرًا، وَأَطْيَبَهُمْ نَفْسًا، وَأَنْعَمَهُمْ قَلْبًا، فَإِنَّ لِلصَّدَقَةِ وَفِعْلِ الْمَعْرُوفِ تَأْثِيرًا عَجِيبًا فِي شَرْحِ الصَّدْرِ.

فَانْضَافَ ذَلِكَ إِلَى مَا خَصَّهُ اللهُ بِهِ؛

ـ مِنْ شَرْحِ صَدْرِهِ؛ لِلنُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ وَخَصَائِصِهَا وَتَوَابِعِهَا.

ـ وَشَرْحِ صَدْرِهِ؛ حِسًّا وَإِخْرَاجِ حَظِّ الشَّيْطَانِ مِنْهُ.

فَصلٌ فِي أَسبَابِ شَرحِ الصَّدرِ، وَحُصُولِهَا علَى الكَمَالِ لَهُ صلَّى اللهُ علَيهِ وسَلَّمَ

فَأَعْظَمُ أَسْبَابِ شَرْحِ الصَّدْرِ:

[1] •التَّوحِيدُ (1)**:** وَعَلَى حَسَبِ كَمَالِهِ وَقُوَّتِهِ وَزِيَادَتِهِ يَكُونُ انشِرَاحُ صَدرِ صَاحِبِهِ.

---

(1) **وهو إفرادُ اللهِ تعَالَى بِحُقُوقِهِ.**

وهي كما دلَّ الاستقراء والتَّتبُّع ثلاثةُ أقسام:

1ـ حقُّ الرُّبوبِيَّةِ: كما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأَنْعَام/164].

وتَوحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ: هُو إفرادُ اللهِ بِذَاتِهِ وأَفعَالِهِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:(أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ) الزُّمَرِ: 22.

وَقَالَ تَعَالَى:(فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) الأنعام:

2- حقُّ الألُوهِيَّةِ: كما قال تعَالَى: ﴿ فاعبُدِ اللهَ مُخلِصًا له الدِّين ﴾ [الزُّمَر/2].

وتَوحِيدُ الألُوهيَّة (العبادة): هو إفرادُ اللهِ تعالى بالعِبَادةِ.

3- حقُّ الأَسمَاءِ الحُسنَى والصِّفاتِ العُليَا: ﴿ وللهِ الأسمَاءُ الحُسنَى فَادعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف/180].

وتَوحِيدُ الأسماءِ والصِّفاتِ: إفرادُ الله تعَالَى بِالأسمَاءِ الحُسنَى والصِّفاتِ العُليَا.

قَالَ بَعضُهُم نَاظِمًا أنواعَ التَّوحيدِ الثَّلاثَةِ:

اِعلَم بِأنَّهُ عَلَى العَبِيدِ ... للهِ أنواعٌ مِنَ التَّوحِيدِ

تَوحِيدُهُ فِي فِعلِهِ وَفِعلِكَ ... وَفِي اسمِهِ وَوَصفِهِ وذَلِكَ

جَاءَت بِهِ الآيَاتُ وَالأَخبَارُ ... كَمَا قَضَى الأئِمَّةُ الأَخيَارُ

يقول ابن القيِّم كما في كتابه الدَّاء والدَّواء ص (458-459): "وكما أنَّ مَن مات على هذِه الكلمة فهو في الجنَّة يتقلَّب فيها، فمَن عاش على تَحقِيقِها والقيامِ بها فَرُوحُه تتقلَّب في جنَّة المأوى وعَيشُه أطيبُ عَيشٍ، فالجنَّة مأواهُ يومَ اللِّقاء، وجنَّة المعرِفَة والمَحبَّة والأُنسِ باللهِ والشَّوقِ إلى لقائِهِ والفَرَحِ والرِّضَى به وعنه مأوى رُوحِهِ في هَذِهِ الدَّارِ.

فمَن كَانَت هذه الجنَّة مأوَاهُ هاهُنَا، كانَت جَنَّةُ الخُلدِ مأوَاهُ يَومَ المَعَادِ، ومَن حُرِم هذِه الجنَّة، فهو لِتِلكَ أشدُّ حِرمانًا.

والأَبرَارُ فِي النَّعيمِ، وإن اشتدَّ بِهِم العَيشُ، وضَاقَت عليهم الدُّنيَا، والفُجَّارُ فِي جَحِيمٍ، وإن اتَّسَعَت عَلَيهِم الدُّنيَا.ا.هـ

ويقولُ كمَا في شِفاءِ العَلِيلِ (107/1): فالمُؤمِنُ مُنشَرِحُ الصَّدرِ مُنفَتِحُه في هذه الدَّار على ما نَالَهُ مِن مَكرُوهٍ، وإذا قَوِيَ الإيمان وخالطَت بشَاشَتُه القُلوبَ؛ كان على مَكَارِهِها أَشرحَ صَدرًا مِنهُ على شَهوَاتِهَا ومَحابِها، فإذا فارَقَهَا كان انفساحُ رُوحِهِ، والشَّرحُ الحَاصِلُ لهُ بِفِرَاقِها أعظمُ بِكَثيرٍ؛ كحالِ مَن خرجَ مِن سِجنٍ ضَيِّقٍ إلى فضاءٍ وَاسِعٍ مُوافِقٍ لهُ، فإنَّها سِجنُ المُؤمِنِ، فإذا بَعثَهُ الله يومَ القيامة رأى مِن انشِرَاحِ صَدرِهِ وسِعَتِه مَا لاَ نِسبَةَ لِمَا قَبلَهُ إلَيهِ، فَشَرحُ الصَّدرِ كمَا أنَّه سَبَبُ الهِدَايةِ فَهُوَ أَصلُ كلِّ نِعمةٍ، وأساسُ كلِّ خَيرٍ" .ا.هـ

125. فَالهُدَى وَالتَّوحِيدُ مِن أَعظَمِ أَسبَابِ شَرحِ الصّدرِ، وَالشِّركُ وَالضَّلَالُ مِنْ أَعظَمِ أَسبَابِ ضِيقِ الصَّدرِ وَانحِرَاجِهِ.

[2] **•وَمِنهَا: النُّورُ الَّذِي يَقذِفُهُ اللهُ فِي قَلبِ العَبدِ، وَهُوَ نُورُ الإِيمَانِ،** فَإِنَّهُ يَشرَحُ الصَّدرَ وَيُوَسِّعُهُ وَيُفرِحُ القَلبَ.

فَإِذَا فُقِدَ هَذَا النُّورُ مِنْ القَلبِ ضَاقَ وَحَرَجَ، وَصَارَ فِي أَضيَقِ سِجْنٍ وَأَصعَبِهِ.

وَقَد رَوَى التِّرمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : "إِذَا دَخَلَ النُّورُ القَلبَ انفَسَحَ وَانشَرَحَ.

قَالُوا: وَمَا عَلَامَةُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قَالَ: الإِنَابَةُ إِلَى دَارِ لْخُلُودِ، وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الغُرُورِ، وَالِاستِعدَادُ لِلمَوتِ قَبلَ نُزُولِهِ [(1)].

فَنَصِيبُ العَبدِ مِنِ انشِرَاحِ صَدرِهِ بِحَسَبِ نَصِيبِهِ مِنْ هَذَا النُّورِ.

وَكَذَلِكَ النُّورُ الحِسِّيُّ، وَالظُّلمَةُ الحِسِّيَّةُ، هَذَا يَشرَحُ الصَّدرَ، وَهَذِهِ تُضَيِّقُهُ.

3 **•وَمِنهَا: العِلمُ،** فَإِنَّهُ يَشرَحُ الصَّدرَ، وَيُوَسِّعُهُ حَتَّى يَكُونَ أَوسَعَ مِنَ الدُّنيَا، وَالجَهلُ يُورِثُهُ الضِّيقَ وَالحَصْرَ وَالحَبسَ، فَكُلَّمَا اتَّسَعَ عِلمُ العَبدِ انشَرَحَ صَدرُهُ وَاتَّسَعَ.

---

(1) ليسَ عند التِّرمذي في المطبوع، وقد رواه الحكيم التِّرمذي في نوادر الأصول (540) مِن حديث ابن عمر رضي الله عنه بإسنادٍ ضعيف جدًّا، ورُوِي مِن وجوهٍ أُخرَى مرسلاً فقد رواه ابن جرير في تفسيره (541/9) وابن أبي حاتم (1384/4)، عن أبي جعفر المدائني، وأبو جعفر المدائني؛ هو عبد الله بن المسور، قال الذَّهبي في الميزان (504/2): "ليس بثقة"، قال أحمد وغيرُه: "أحادِيثُه موضُوعَة"، انظر علل الدَّارقطني (189/5) والعلل المتناهية (318/2) والسِّلسلة الضَّعيفة للألباني (965).

وَلَيْسَ هَذَا لِكُلِّ عِلمٍ، بَل لِلعِلمِ المَورُوثِ عَنِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ العِلمُ النَّافِعُ [1]، فَأَهلُهُ؛ أَشْرَحُ النَّاسِ صُدُورًا، وَأَوسَعُهُم قُلُوبًا، وَأَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقًا، وَأَطْيَبُهُمْ عَيْشًا.

4 •**وَمِنهَا: الإِنَابَةُ إِلَى اللهِ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وَمَحَبَّتُهُ بِكُلِّ القَلْبِ، وَالإِقْبَالُ عَلَيهِ، وَالتَّنَعُّمُ بِعِبَادَتِهِ،** فَلَا شَيءَ أَشْرَحُ لِصَدرِ العَبْدِ مِنْ ذَلِكَ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ أَحيَانًا: "إِن كُنتُ فِي الجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الحَالِ فَإِنِّي إِذًا فِي عَيْشٍ طَيِّبٍ."

وَلِلْمَحَبَّةِ تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي انْشِرَاحِ الصَّدرِ وَطِيبِ النَّفْسِ وَنَعِيمِ القَلبِ، لَا يَعرِفُهُ إِلَّا مَنْ لَهُ حِسٌّ بِهِ، وَكُلَّمَا كَانَتِ المَحَبَّةُ أَقوَى وَأَشَدَّ كَانَ الصَّدْرُ أَفسَحَ وَأَشرَحَ، وَلَا يَضِيقُ إِلَّا عِندَ رُؤيَةِ البَطَّالِينَ الفَارِغِينَ مِنْ هَذَا الشَّأْنِ، فَرُؤيَتُهُمْ قَذَى عَينِهِ، وَمُخَالَطَتُهُمْ حُمَّى رُوحِهِ.

---

(1) العِلمُ النَّافعُ هو: العِلمُ ـ ضَبطًا وفَهمًا ـ بِمَا جَاءَ فِي الكِتابِ والسُّنَّةِ مَعَ التَّقيُّد فِي فهمِ ذلكَ والعملِ بِهِ بمَا ثَبتَ عَنِ السَّلفِ وعُلماءِ الأُمَّةِ المُعتَبَرين؛

يَقولُ شَيخُ الإسلامِ كما في مجموع الفتاوى (664/10): " العِلمُ المَورُوثُ عَنِ النَّبيِّ ﷺ، هو الَّذي يستَحِقُّ أن يُسمَّى علماً، ومَا سِواهُ: ـ إمَّا أن يكُونَ عِلماً فلاَ يُكُونُ نَافِعاً.

ـ وَإمَّا أن لاَ يكُونَ عِلماً وإن سُمِّيَ بِهِ.

ولَئِن كان عِلماً نافعاً فلا بُدَّ أن يَكونَ مِن مِيراثِ مُحمَّدٍ ﷺ."

وَأَصلُهُ؛ "1ـ العِلمُ بِاللهِ الَّذِي يُوجِبُ خَشيَتَهُ ومَحَبَّتَهُ والقُربَ مِنهُ والأُنسَ بِهِ والشَّوقَ إِلَيهِ.

2ـ ثُمَّ يَتلُوهُ العِلمُ بِأحكَامِ اللهِ ومَا يُحِبُّهُ ويَرضَاهُ مِنَ العَبدِ مِن اعتِقَادٍ أَو قَولٍ أَو عَمَلٍ بَاطِنٍ فِي القَلبِ أَو ظَاهِرٍ عَلَى الجَوَارِحِ وَالأَركَانِ". فَضلُ عِلمِ السَّلفِ عَلَى عِلمِ الخَلَفِ لابنِ رَجَب ص 78 بتصرُّف يسير.

وهَذَا العِلمُ هُو؛ "الكَفِيلُ بِكُلِّ خَيرٍ دِينِيٍّ ودُنيَويٍّ وأُخرَوِيٍّ، والعلمُ النَّافعُ مِن علُومِ الصِّنَاعَاتِ والمُختَرَعَاتِ دَاخِلٌ فِي ضِمنِ هذَا، بَل العِلمُ الدِّينِيُّ هُو الَّذِي يُصَيِّرُ العُلُومَ الطَّبِيعِيَّة والصِّنَاعِيَّة نَافِعَةً نَفعًا صَحِيحًا، وهُو الَّذِي يُوجِّهُهَا إِلَى نَفعِ النَّوعِ الإِنسَانِيِّ ويَمنَعُهَا مِن التَّهوُّرِ والهَلاكِ ". الدَّلائل القرآنية في أن العلوم والأعمال النافعة العصرية داخلة في الدين الإسلامي (509/3) لابن سعدي، ضمن مجموع مصنَّفات ابن سعدي ط وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

وَمِنْ أَعظَمِ أَسبَابِ ضِيقِ الصَّدْرِ:

الإِعرَاضُ عَنِ اللهِ تَعَالَى، وَتَعَلُّقُ القَلبِ بِغَيرِهِ، وَالغَفلَةُ عَنْ ذِكْرِهِ، وَمَحَبَّةُ سِوَاهُ، فَإِنَّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا غيرَ اللَّهِ عُذِّبَ بِهِ، وَسُجِنَ قَلبُهُ فِي مَحَبَّةِ ذَلِكَ الغَيرِ، فَمَا فِي الأَرضِ أَشْقَى مِنهُ، وَلَا أَكْسَفُ بَالًا، وَلَا أَنْكَدُ عَيشًا، وَلَا أَتعَبُ قَلبًا(1).

فَهُمَا مَحَبَّتَانِ:

1- مَحَبَّةٌ هِيَ جَنَّةُ الدُّنيَا، وَسُرُورُ النَّفْسِ، وَلَذَّةُ القَلبِ، وَنَعِيمُ الرُّوحِ وَغِذَاؤُهَا وَدَوَاؤُهَا، بَل حَيَاتُهَا وَقُرَّةُ عَينِهَا، وَهِيَ؛ مَحَبَّةُ اللَّهِ وَحْدَهُ بِكُلِّ القَلبِ، وَانجِذَابُ قُوَى المَيلِ وَالإِرَادَةِ وَالمَحَبَّةِ كُلِّهَا إِلَيهِ.

2- وَمَحَبَّةٌ هِيَ عَذَابُ الرُّوحِ، وَغَمُّ النَّفْسِ، وَسِجنُ القَلبِ، وَضِيقُ الصَّدرِ، وَهِيَ سَبَبُ الأَلَمِ وَالنَّكَدِ وَالعَنَاءِ، وَهِيَ؛ مَحَبَّةُ مَا سِوَاهُ سُبحَانَهُ.

---

(1) وهذا حالُ أكثرِ النَّاسِ اليومَ إلاَّ مَن رَحِمَ اللهُ، يقولُ ابن القيِّم في الدَّاء والدَّواء ص (185): " فكلُّ مَن أحبَّ شيئًا غيرَ اللهِ عُذِّبَ بهِ ثلاثَ مرَّاتٍ فِي هَذِهِ الدَّارِ:

1- **فَهُو يُعذَّب به قبلَ حُصولِه حتَّى يَحصُلَ.**

2- فَإِذَا حَصَلَ عُذِّب به حَالَ حُصُولِهِ؛ بِالخوفِ مِن سَلبِه وفَوَاتِه، والتَّنغِيصِ والتَّنكِيدِ علَيهِ، وأنواعِ المُعارضَاتِ.

3- فإِذَا سُلِبَهُ اشتدَّ عذَابُه عَلَيهِ. (أي بعد حصوله)، فَهَذِه ثلاثَةُ أَنواعٍ مِنَ العذَابِ فِي هذِه الدَّارِ.

وأمَّا في البَرزخِ؛ فعذابٌ يُقارِنُه ألمُ الفِرَاقِ الَّذي لا يرجُو عَودَهُ وألمُ فَواتِ مَا فَاتَهُ مِنَ النَّعِيمِ العَظِيمِ بِاشتِغَالِه بِضِدِّه، وألمُ الحِجابِ عنِ اللهِ، وألمُ الحَسرَةِ الَّتي تَقطَعُ الأكبَادَ، فالهَمُّ والغَمُّ والحَسرةُ والحُزنُ تَعملُ فِي نُفُوسِهم نَظِيرَ ما تَعملُ الهوَامُّ والدِّيدانُ فِي أَبدَانِهِم، بل عَمَلُها في النُّفوسِ دَائمٌ مُستَمِرٌّ حتَّى يَرُدَّهَا اللهُ إِلَى أَجسَادِهَا، فَحِينَئذٍ يَنتَقِلُ العذابُ إِلَى نَوعٍ هُو أَدهَى وأَمرُّ.ا.هـ

يقولُ ابن القيِّم في مدارج السالكين (2/391): وَسَمِعتُه يَقُولُ - أَي ابنُ تَيمِية - فِي قَولِ النَّبِيِّ: "لاَ تَدخُلُ المَلاَئِكةُ بَيتًا فِيهِ كَلبٌ وَلاَ صُورَة "، إِذَا كَانَت المَلاَئِكَةُ المَخلُوقُونَ يَمنَعُهَا الكَلبُ والصُّورَةُ عَن دَخُولِ البَيتِ، فَكَيفَ تَلِجُ؛ مَعرِفَةُ اللهِ عزَّ وجلَّ ومَحبَّتُهُ وَحلاَوةُ ذِكرِهِ والأُنسِ بِقُربِهِ فِي قَلبِ مُمتَلِئٌ بِكِلابِ الشَّهوَاتِ وَصُوَرِهَا؟ ا.هـ

وَمِنْ أَسبَابِ شَرحِ الصَّدرِ:

5 •**دَوَامُ ذِكرِهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَفِي كُلِّ مَوطِنٍ.** فَلِلذِّكْرِ [1] تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي انشِرَاحِ الصَّدرِ وَنَعِيمِ القَلبِ، وَلِلغَفلَةِ [2] تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي ضِيقِهِ وَحَبْسِهِ وَعَذَابِهِ. [3]

---

(1) ذِكرُ اللهِ تعالَى لَهُ مَعنَيَانِ:

أ- مَعنًى عَامٌّ: ويَشمَلُ كُلَّ أَنوَاعِ العِبَادَاتِ مِن صَلاةٍ وصِيَامٍ وحَجٍّ وَقِرَاءَةِ قُرآنٍ وثَنَاءٍ ودُعَاءٍ وتَسبِيحٍ وتَحمِيدٍ وتَمجِيدٍ وغَيرِ ذَلِكَ مِن أَنواعِ الطَّاعَاتِ؛ لِأَنَّها إنَّما تُقامُ لِذكرِ اللهِ وطَاعَتِهِ وعِبَادَتِهِ.

قال شيخُ الإسلامِ: "كُلُّ مَا تَكلَّمَ بِهِ اللِّسانُ وتَصَوَّرَهُ القَلبُ مِمَّا يُقرِّبُ إِلَى اللهِ مِن تَعلُّمِ عِلمٍ وتَعلِيمِهِ وأَمرٍ بِمَعرُوفٍ ونَهيٍ عَن مُنكَرٍ فَهُوَ مِن ذِكرِ اللهِ" مجموع الفتاوى (661/10).

وَقَالَ عَبدُ الرَّحمنِ بنِ سَعدِي: "وإِذَا أُطلِقَ ذِكرُ اللهِ شَمِلَ كُلَّ مَا يُقَرِّبُ العَبدَ إِلَى اللهِ مِن عَقِيدةٍ أَو فِكرٍ أَو عَمَلٍ قَلبِيٍّ أَو عَمَلٍ بَدَنِيٍّ أَو ثَناءٍ علَى اللهِ أَو تَعلُّمِ عِلمٍ نَافعٍ وتَعلِيمِهِ ونَحوِ ذلِكَ، فكُلُّهُ ذِكرٌ للهِ تعَالَى" الرياض النضرة (ص245).

ب- مَعنًى خَاصٌّ: وَهُو ذِكرُ اللهِ بِالأَلفَاظِ الَّتِي وَرَدَت عَنِ اللهِ سُبحَانَهُ وتَعَالى مِن تِلاوَةِ كِتَابِهِ أَو إجرَاءِ أَسمَائِهِ أَو صِفَاتِهِ العُليَا علَى لسانِ العَبدِ أَو قَلبِهِ مِمَّا وَردَ فِي كِتَابِ اللهِ سُبحَانَه، أَو الأَلفاظِ الَّتِي وَرَدَت علَى لِسانِ رَسُولِهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وفيهَا تَمجِيدٌ وتَنزِيهٌ وتَقدِيسٌ وتَوحِيدٌ لِلهِ سُبحَانَهُ وتَعَالَى. الذِّكر وأثره في دنيا المسلم وآخرته (ص17-20).

وَالمُرادُ مِنَ الذِّكرِ: حُضُورُ القَلبِ، فَيَنبَغِي أَن يَكُونَ هُوَ مَقصُودُ الذَّاكِرِ فَيَحرص عَلَى تَحصِيلِهِ ويَتَدَبَّرَ مَا يَذكُرُ، وَيَتَعَقَّلَ مَعنَاهُ..

ويَنبَغِي للعبدِ الاعتناءُ بالأذكارِ الشَّرعِيَّة في يَومِهِ لَيلِهِ ونَهارِه في كلِّ ثانِيَةٍ تَمُرُّ عليهِ منهُ على وَجهِ الاستِمرَارِ والثَّباتِ حتَّى يلقى الله تعالى ولسانُه وقبلَ ذَلِكَ قَلبهُ رَطبٌ لَيِّنٌ مِن ذِكرِ اللهِ تعالَى، ومِن أحسَنِ مَا يُستعَانُ به على ذلِكَ بعدَ تَوفِيقِ الله تعالى ودُعَائِهِ النَّظَرُ والمُطالَعَةُ فِي كُتُبٍ مُبَارَكةٍ مِنهَا؛ الأَذكَارُ للإِمامِ النَّوَوِي، والكَلِمُ الطيِّب لِشيخِ الإسلاَم، والوَابلُ الصَّيِّبُ لابنِ القيِّم، ومِنَ المُعاصِرِينَ؛ حِصنُ المُسلِم وكتاب الدُّعاء لسَعيد بن علي بن وهف القَحطاني.

(2) يَقولُ ابن القيِّم في الوابِلِ الصَّيِّب ص (92): "وصَدَأُ القَلبِ بِأمرَينِ: بِالغَفلةِ، والذَّنبِ، وجَلاؤُهُ بِشَيئَينِ: بِالِاستِغفَارِ والذِّكرِ".

(3) يقولُ ابنُ القيِّم كما في كتاب الفوائِد ص (58): "أخسَرُ النَّاسِ صَفقةً مَن اشتَغلَ عَن اللهِ بِنَفسِهِ، بَل أَخسَرُ مِنهُ مَن اشتَغلَ عَن نَفسِهِ بِالنَّاسِ".ا.هـ، وَهذَا الحَالُ قد سَادَ أَكثَرَ العِبَادِ، فإلى الله المشتكى.

6 •وَمِنهَا: الإِحْسَانُ إِلَى الخَلقِ وَنَفْعُهُمْ بِمَا يُمكِنُهُ مِنَ المَالِ وَالجَاهِ وَالنَّفعِ بِالبَدَنِ وَأَنوَاعِ الإِحسَانِ.

فَإِنَّ الكَرِيمَ المُحسِنَ أَشرَحُ النَّاسِ صَدرًا، وَأَطيَبُهُمْ نَفسًا، وَأَنعَمُهُمْ قَلبًا(1)، وَالبَخِيلُ الَّذِي لَيسَ فِيهِ إِحسَانٌ أَضيَقُ النَّاسِ صَدْرًا، وَأَنكَدُهُمْ عَيشًا، وَأَعظَمُهُمْ غَمًّا وَهَمًّا.

وَقَد ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ مَثَلًا لِلبَخِيلِ وَالمُتَصَدِّقِ؛ "كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ، كُلَّمَا هَمَّ المُتَصَدِّقُ بِصَدَقَةٍ اتَّسَعَتْ عَلَيْهِ وَانْبَسَطَتْ حَتَّى تُجِنَّ بَنَانَهُ وَتُعفِّيَ أَثَرَهُ، وَكُلَّمَا هَمَّ البَخِيلُ بِالصَّدَقَةِ لَزِمَتْ كُلُّ حَلقَةٍ مَكَانَهَا وَلَمْ تَتَّسِعْ عَلَيهِ"(2)، فَهَذَا مَثَلُ انشِرَاحِ صَدرِ المُؤمِنِ المُتَصَدِّقِ، وَانفِسَاحِ قَلبِهِ، وَمَثَلُ ضِيقِ صَدرِ البَخِيلِ، وَانحِصَارِ قَلبِهِ. (3)

---

(1) يقولُ ابنُ القيِّم كما في الوابل الصَّيِّب (ص 109): "فالإحسانُ له جزاءٌ مُعجَّل ولابدّ..، ولولَم يَكُن إلاَّ ما يُجازَى به المُحسنِينَ مِن انشِراحِ صُدُورِهم في انفسَاحِ قُلُوبِهِم وسُرُورِهم ولَذَّتِهم بمُعامَلَةِ رَبِّهم عزَّ وجلَّ وطاعتِه وذِكرِه ونعيمِ أَروَاحِهم بمَحبَّتِه؛ لَكَفَى..

ومَا يُجازَى بِهِ الُمسيِء مِن ضِيقِ الصَّدرِ وقَسوةِ القَلبِ وتَشتُّتِه وظُلمَتِه وحَزَازَتِه وهَمِّهِ وغَمِّه وحُزنِهِ وخَوفِه، وهذا أمرٌ لا يَكادُ مَن لهُ أدنَى حِسٍّ وَحيَاةٍ يَرتابُ فِيهِ، بل الهُمُومُ والغُمومُ والضِّيقُ والأَحزانُ عُقوبَاتٌ عَاجِلَةٌ، ونارٌ دُنيَويَّةٌ، وجَهنَّمٌ حَاضِرٌ، والإقبالُ على اللهِ تعالَى والإنَابَةُ إلَيهِ والرِّضَا بهِ وعَنهُ وامتِلاءُ القَلبِ مِن مَحبَّتِهِ واللَّهَجِ بذِكرِه والفَرحُ والسُّرُورُ بِمَعرِفَتِه ثوابٌ عَاجِلٌ، وجَنَّةٌ حَاضِرَةٌ، وعَيشٌ لاَ نِسبَةَ لِعَيشِ المُلُوكِ إلَيهِ البَتَّةَ..."ا هـ.

(2) رواه البخاري (1433، 2917، 5299، 5797) ومسلم (1021) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) يقولُ ابنُ القيِّم كما في الوابل الصَّيِّب (ص 57-77): " ولمَّا أن كانَ البَخِيلُ مَحبُوسًا عَن الإِحسَانِ مَمنُوعًا عَن البِرِّ والخَيرِ؛ كَان جَزَاؤُهُ مِن جِنسِ عَمَلِهِ، فَهُو ضَيِّقُ الصَّدرِ، مَمنُوعٌ مِن الانشِرَاحِ، ضَيِّقُ العَطَنِ، صَغِيرُ النَّفسِ، قَلِيلُ الفَرَحِ، كَثِيرُ الهَمِّ والغَمِّ والحُزنِ، لا يَكادُ تُقضَى لهُ حَاجَة، ولا يُعانُ على مَطلُوبٍ، فَهوَ كرَجُلٍ عَلَيهِ جُبَّةٌ مِن حَدِيدٍ، قد جُمِعَت يَدَاهُ إلى عُنُقِه، بِحَيثُ لاَ يتمَكَّنُ مِن إخرَاجِهَا ولاَ حَرَكَتِهَا، وكُلَّمَا أَرَادَ إِخرَاجَهَا أَو تَوسِيعَ تِلكَ الجُبَّةِ لَزِمَت كُلُّ حَلَقَةٍ مِن حِلَقِهَا مَوضِعَهَا، وهكذَا البَخِيلُ كُلَّما أرادَ أن يَتصدَّقَ مَنَعَهُ بُخلُه، فيَبقَى قَلبُهُ في سِجنِه كمَا هُوَ.

والمُتَصدِّقُ كُلَّما تَصَدَّقَ بِصدَقَةٍ انشرَحَ لَهَا قَلبُهُ، وانفَسَحَ لهَا صَدرُه، فَهُو بِمَنزِلَةِ اتِّساعِ تِلكَ الجُبَّةِ عَلَيهِ، فكُلَّما اتَّسعَ وانفَسَحَ وانشرَحَ؛ قَوِيَ فَرَحُهُ، وعَظُمَ سُرُورُه، ولَو لَم يَكُن في الصَّدَقَةِ إلاَّ هَذِه الفَائِدَةِ وَحدَهَا؛ لكانَ العَبدُ

7 •وَمِنـهَا: الشَّجَاعَةُ.

فَإِنَّ الشُّجَاعَ مُنشَرِحُ الصَّدرِ، وَاسِعُ البِطَانِ (1)، مُتَّسِعُ القَلبِ، وَالجَبَانُ أَضيَقُ النَّاسِ صَدرًا، وَأَحصَرُهُمْ قَلبًا، لَا فَرحَةَ لَهُ وَلَا سُرُورَ، وَلَا لَذَّةَ، وَلَا نَعِيمَ إِلَّا مِنْ جِنْسِ مَا لِلحَيَوَانِ البَهِيمِ، وَأَمَّا سُرُورُ الرُّوحِ وَلَذَّتُهَا وَنَعِيمُهَا وَابْتِهَاجُهَا فَمُحَرَّمٌ عَلَى كُلِّ جَبَانٍ، كَمَا هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَى كُلِّ بَخِيلٍ(2)، وَعَلَى كُلِّ مُعْرِضٍ عَنِ اللَّهِ سُبحَانَهُ، غَافِلٍ عَنْ ذِكرِهِ، جَاهِلٍ بِهِ وَبِأَسمَائِهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ وَدِينِهِ، مُتَعَلِّقِ القَلبِ بِغَيرِهِ.

وَإِنَّ هَذَا النَّعِيمَ وَالسُّرُورَ لَيَصِيرُ فِي القَبرِ رِيَاضًا وَجَنَّةً(3)، وَذَلِكَ الضِّيقُ وَالحَصْرُ يَنْقَلِبُ فِي القَبْرِ عَذَابًا وَسِجْنًا.

حقِيقًا بِالاستِكثَارِ مِنهَا والمُبادَرَةِ إِلَيهَا، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ [الحَشْر/9]، وَالفَرقُ بينَ الشُّحِّ والبُخلِ:

ـ أنَّ الشُّحَّ: هو شِدَّةُ الحِرصِ علَى الشَّيءِ، والإحفاءُ فِي طَلَبِهِ، وَالاستِقصَاءُ فِي تَحصِيلِهِ، وجَشعُ النَّفسِ عَلَيهِ.

ـ والبُخلُ: مَنعُ إنفَاقِهِ بَعدَ حُصُولِهِ، وحُبُّهُ وإمسَاكُهُ.

فَهُوَ شَحِيحٌ قَبلَ حُصُولِهِ، بَخِيلٌ بَعدَ حُصُولِهِ؛ فالبُخلُ ثَمرَةُ الشُّحِّ، والشُّحُّ يَدعُو إلَى البُخلِ، والشُّحُّ كَامِنٌ فِي النَّفسِ، فَمَن بَخِلَ فَقَد أَطاعَ شُحَّهُ، ومَن لَم يَبخَل فَقَد عَصَى شُحَّهُ، ووقِيَ شَرَّهُ، وذلِكَ هُوَ المُفلِحُ، ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ [الحَشْر/9].

والسَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللهِ تَعَالى وَمِن خَلقِهِ ومِن أَهلِهِ، وقَرِيبٌ مِنَ الجنَّةِ وبَعِيدٌ مِن النَّارِ، والبَخِيلُ بَعِيدٌ مِن خَلقِهِ، بَعِيدٌ مِنَ الجَنَّةِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ".ا.هـ

(1) قال ابن مَنظُور في لسان العرب (220/1): "البِطان؛ حِزام الرَّحل والقَتَب، وقيل؛ هو للبَعِيرِ كالحِزَام للدَّابَّةِ، والجَمعُ؛ أَبطِنَةٌ وبُطُن..، وفي (222/1): وإنَّه لَعَرِيضُ البِطَانِ أي رَخِيُّ البَالِ.

(2) يقولُ ابنُ القيِّمِ في بدائع الفوائد (714/2): والجُبنُ والبُخلُ قَرِينَانِ؛ لِأَنَّهُما عدمُ النَّفعِ بالمالِ والبَدَنِ، وهُمَا مِن أَسبَابِ الأَلَمِ، لأنَّ؛ ـ الجبانَ تَفُوتُه مَحبُوباتٌ ومُفرِحَات ومَلذُوذَاتٌ عَظِيمَةٌ، لاَ تُنالُ إلاَّ بِالبَذلِ والشَّجاعَةِ.

ـ فالبخلُ يَحولُ بَينَهُ وبَينَهَا أيضًا.

فَهذَانِ الخُلُقَانِ مِن أَعظَمِ أَسبَابِ الآلامِ".

فَحَالُ العَبدِ فِي القَبرِ كَحَالِ القَلبِ فِي الصَّدرِ نَعِيمًا وَعَذَابًا، وَسِجنًا وَاطلَاقًا.

وَلَا عِبرَةَ بِانشِرَاحِ صَدرِ هَذَا لِعَارِض، وَلَا بِضِيقِ صَدرِ هَذَا لِعَارِض، فَإِنَّ العَوَارِضَ تَزُولُ بِزَوَالِ أَسبَابِهَا، وَإِنَّمَا المُعَوَّلُ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي قَامَتْ بِالقَلبِ تُوجِبُ انْشِرَاحَهُ وَحَبسَهُ، فَهِيَ المِيزَانُ، وَاللهُ المُستَعَانُ.

8 •وَمِنهَا بَل مِنْ أَعْظَمِهَا: إِخْرَاجُ دَغَلِ(1) القَلبِ مِنَ الصِّفَاتِ المَذْمُومَةِ(2) الَّتِي تُوجِبُ ضِيقَهُ وَعَذَابَهُ، وَتَحُولُ بَينَهُ وَبَينَ حُصُولِ البُرْءِ.

---

(3) ورد حديث ضعيف في ذلك رواه الترمذي (2460).

(1) هو أن يَدخُلَ فِي الأمرِ الحِسِّي أو المَعنَوِي شَيءٌ مُستَتِرٌ خَفِيٌّ مَكتُومٌ يُفسِدُهُ.

(2) كالبُغضِ والكِبرِ والتَّجبُّرِ والخُيلاَءِ والحِقدِ والحَسَدِ...، يقولُ شيخُ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (334/18): " بَيَّن الكِتابُ والسُّنَّةُ أنَّ الشُّحَّ والحَسَدَ مِن جِنسٍ وَاحدٍ كمَا في قوله تعالى﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحَشْر/9]، فَأَخبَرَ عَنهُم بِأَنَّهُم يَبذلُون مَا عِندَهُم مِنَ الخَيرِ مَع الحَاجَةِ، وأنَّهُم لاَ يَكرَهُونَ مَا أنعَمَ بِهِ علَى إِخوَانِهِم.

وضِدُّ الأوَّل: البُخلُ، وضِدُّ الثَّانِي: الحَسَدُ، ولِهَذَا كانَ البُخلُ والحَسَدُ مِن نَوعٍ وَاحدٍ، فإنَّ الحَاسدَ يَكرَهُ عَطاءَ غَيره، والبَاخِلَ لاَ يُحِبُّ عَطَاءَ نَفسِه، ثُمَّ قال:﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحَشْر/9]، فإنَّ الشُّحَّ أَصلُ البُخلِ، وأَصلٌ لِلحَسَدِ، وهُو ضِيقُ النَّفسِ وعدَمُ إِرَادَتِهَا وكَرَاهَتِهَا لِلخَيرِ لِلغَيرِ، فَيتَولَّد عَن ذَلِكَ امتِنَاعُه مِن النَّفعِ، وهُو البُخلُ، وإِضرَارُ المُنعِمِ عَلَيهِ، وهُوَ الظُّلمُ، وإذَا كَانَ فِي الأَقَارِبِ كانَ قَطِيعَةً" ا.هـ.

ولِلحَاسِدِ نَقُولُ مَا قَالَهُ الشَاعِرُ:

أَلاَ قُلْ لِمَن كَانَ لِي حَاسِدًا ... أَتَدرِي عَلَى مَن أَسَأتَ الأَدَبْ

أَسَأتَ عَلَى اللهِ فِي فِعلِهِ ... لِأَنَّكَ لَم تَرضَ لِي مَا وَهَبْ

فَجَازَاكَ عَنِّي بِأَن زَادَنِي ... وَسَدَّ عَلَيكَ وُجُوهَ الطَّلَبْ

فَإِنَّ العَبدَ إِذَا أَتَى بِالأَسبَابِ الَّتِي تَشرَحُ صَدرَهُ، وَلَم يُخرِجْ تِلكَ الأَوصَافَ المَذْمُومَةَ مِنْ قَلبِهِ، لَمْ يَحْظَ مِنَ انْشِرَاحِ صَدرِهِ بِطَائِلٍ، وَغَايَتُهُ أَنْ تَكُونَ لَهُ مَادَّتَانِ تَعتَورَانِ عَلَى قَلبِهِ، وَهُوَ لِلمَادَّةِ الغَالِبَةِ عَلَيهِ مِنهُمَا.

9 •وَمِنـهَا: تَركُ فُضُولِ: (1)

1- النَّظَرِ. (2)

2 - وَالكَلَامِ. (3)

---

(1) وَهُو مَا لاَ فائدةَ فِيهِ، مِمَّا هو زَائدٌ علَى الحَاجَةِ الَّتي تَنفَعُ العَبدَ فِي أُمُورِهِ الدِّينِيَّة والدُّنيَوِيَّة، إذَا أخذَهُ ومَارَسَهُ واعتَادَهُ الإنسانُ أَضرَّهُ فِي دِينِهِ ودُنيَاهُ لاَ مَحالَةَ.

(2) وأمَّا "فُضُولُ النَّظَرِ": فَهُو أَن يُطلِقَ الإنسَانُ نَظَرَهُ فِيمَا حَرَّمَ عَلَيهِ، يقولُ ابنُ القيِّم في كتاب إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (47/1): "والعَينُ رَائِدُ القَلبِ، فَيَبعَثُ رَائِدَهُ لِيَنظُرَ مَا هُناكَ، فَإِذَا أَخبَرَهُ بِحُسنِ المَنظُورِ إِلَيهِ وَجَمَالِهِ تَحَرَّكَ اشتِيَاقاً إِلَيهِ وطَلَباً لَهُ، وكَثِيراً مَا يَتعِبُ ويُتعِبُ رَسُولَهُ ورَائِدَهُ ..، فَإِذَا كَفَّ الرَّائِدُ عَنِ الكَشفِ والمُطَالَعَةِ استَرَاحَ القَلبُ مِن كُلفَةِ الطَّلَبِ وَالإِرَادَةِ، فَمَن أَطلَقَ لَحظَاتِهِ دَامَت حَسَرَاتُهُ...، فَحِينَئِذٍ يَقعُ القَلبُ فِي الأَسرِ، فَيَصِير أَسِيرًا بَعدَ أَن كانَ مَلِكًا ومَسجُونًا بَعدَ أَن كانَ مُطلَقًا..، وهذَا إِنَّما تُبتَلَى بِهِ القُلُوبُ الفَارِغَةُ مِن حُبِّ اللهِ وَالإِخلاصِ لَهُ، فَإِنَّ القَلبَ لاَ بُدَّ لهُ مِنَ التَّعلُّقِ بِمَحبُوبٍ، فَمَن لَم يَكُن اللهُ وَحدهُ مَحبُوبَهُ وإِلَهَه ومَعبُودَهُ فَلاَبُدَّ أَن يَتعبَّد قَلبُه لِغَيرِهِ .ا.هـ، ويقولُ ابنُ القيِّم في كتاب الداء والدواء ص (350-353): "والنَّظَرُ أصلُ عامَّة الحَوادِثِ الَّتِي تُصِيبُ الإنسانَ، فإنَّ النَّظرةَ تُولِّدُ خَطرةً، ثمَّ تُولِّد الخَطرةُ فِكرةً، ثمَّ تُولِّدُ الفِكرةُ شَهوةً، ثمَّ تُولِّد الشَّهوةُ إرادَةً، ثمَّ تَقوَى فَتَصير عَزِيمةً جَازِمَةً، فيَقَعُ الفِعلُ ولاَبدَّ مَالَم يَمنَع مِنهُ مَانِعٌ..." إلى آخرِ كَلامِهِ، وانظُر تتِمَّتهُ فإنَّهُ مَاتِعٌ مُفيدٌ لمَن تـأمَّله وتدبَّره، وفي بدائع الفوائد (817/2-819): "فَإِنَّ فُضولَ النَّظر يَدعُوهُ إلى الاستِحسَانِ، ووقُوعِ صُورَةِ المَنظُورِ إِليهِ فِي القَلبِ، والاِشتِغالِ بِهِ، والفِكرةِ فِي الظَّفَرِ بِهِ..".

(3) وَأَمَّا "فُضُولُ الكَلامِ": فَهُو أَن يُطلِقَ الإنسَانُ لِسَانَهُ فِيمَا لاَ يَعنِيهِ، وأَخطَرُ مِنهُ أَن يُطلِقَهُ فِيمَا لاَ يَحِلُّ لَهُ، يقولُ ابنُ القيِّم كما في بدائع الفوائد (819/2-820): " وأكثرُ المَعاصِي إنَّمَا تَولُّدُهَا مِن فُضُولِ الكَلامِ والنَّظَرِ، وهُمَا أوسَعُ مَدَاخِلِ الشَّيطَانِ، فإنَّ جَارِحَتَيهِمَا لاَ يَملاَّنِ ولاَ يَسأمَانِ..، فَجِنَايَتُهُمَا مُتَّسِعةُ الأَطرَافِ، كَثِيرَةُ الشُّعَبِ عَظِيمَةُ الآفَاتِ، وكانَ السَّلفُ يُحَذِّرُونَ مِن فُضُولِ النَّظَرِ، كمَا يُحَذِّرُونَ مِن فُضُولِ الكَلاَمِ.ا.هـ

3 - وَالِاستِمَاعِ. (1)

4 - وَالخُلطَةِ. (2)

---

(1) وَأَمَّا "فُضُولُ الاستِمَاعِ": فَهُو أَن يُلقِيَ الإِنسَانُ أُذُنَيهِ لِسَمَاعِ مَا لاَ يَحِلُّ مِن أَنوَاعِ الكَلامِ كَالغَيبَةِ والنَّمِيمَةِ، وقَولِ الزُّورِ، ومِنهُ الاستِماعُ للأَغَانِي وَأَصوَاتِ أَنوَاعِ آلاتِ الطَّرَب، فإذَا كانَ مِنَ النِّساءِ فَهُو أَخبَثُ وأَنكَرُ وَأَشنَعُ.

(2) يقولُ ابنُ القيِّم كما في كتاب الفوائد ص (71): "الاِجتِماعُ بِالإخوانِ قِسمَانِ:

- **أَحدُهُمَا:** اجتِماعٌ علَى مُؤانَسَةِ الطَّبعِ، وشُغلِ الوَقتِ؛ فهذَا مَضرَّتُهُ أَرجَحُ مِن مَنفَعتِهِ، وأقلُّ مَا فِيهِ أنَّه يُفسِدُ القَلبَ، ويُضَيِّعُ الوَقتَ.

- **الثَّانِي:** الاِجتِماعُ بِهِم علَى التَّعاونِ علَى أَسبَابِ النَّجاةِ، والتَّواصِي بِالحقِّ والصَّبرِ؛ فهذَا مِن أعظَمِ الغَنِيمَةِ وأنفَعِهَا، ولَكن فيهِ ثلاثُ آفَاتٍ؛

- **إحدَاهَا:** تَزَيُّنُ بَعضِهِم لبعضٍ.

- **الثَّانيةُ:** الكلاَمُ، والخُلطَةُ أَكثَرُ مِن الحَاجةِ.

- **الثَّالثةُ:** أَن يَصِيرَ ذلكَ شَهوةً وعَادةً يَنقَطِعُ بِهَا عَن المَقصُودِ.

وبِالجُملةِ فَالاجتِماعُ والخُلطةُ لِقَاحٌ؛ إمَّا للنَّفسِ الأمَّارةِ، وإمَّا للقَلبِ والنَّفسِ المُطمَئِنَّةِ، والنَّتِيجَةُ مُستَفادَةٌ مِنَ اللِّقَاحِ، فمَن طابَ لِقَاحُه طَابَت ثَمرَتُه، وهكذَا الأَروَاحُ الطَّيِّبةُ، لِقَاحُها مِن المَلَك، والخَبِيثَةُ لِقَاحُها مِنَ الشَّيطَانِ.ا.هـ، وانظر بدائع الفوائد (2/821-825).

ويقولُ شَيخُ الإسلام في مجموع الفتاوى (10/425):" فَحقِيقَةُ الأَمرِ أنَّ الخُلطةَ تارةً تكونُ وَاجِبَةً أَو مُستَحَبَّةً، والشَّخصُ الوَاحدُ قَد يكونُ مَأمُورًا بِالمُخالطَةِ تَارةً وبالاِنفرادِ تارةً، وجِماعُ ذلِكَ:

أنَّ المُخالطَةَ إن كانَ فيها تعاونٌ على البِرِّ والتَّقوى فهي مأمورٌ بِهَا، وإن كان فيها تعاونٌ على الإثمِ والعُدوانِ فهِيَ مَنهيٌّ عنهَا.

- فالاِختلاط بالمُسلمين في جِنسِ العِبَادَاتِ؛ كالصَّلواتِ الخَمس والجُمُعة والعيدين وصلاةِ الكسوف والاستسقاء ونحو ذلك هو ممَّا أمرَ الله به ورسُولُه، وكذلك الاِختلاط بِهِم في الحَجِّ وفي غَزوِ الكُفَّار والخوارِجِ المارِقِينَ، وإن كان أئِمَّةُ ذلك فجارًا، وكذلك الاجتماع الَّذي يزدادُ العبد به إيمانًا، إمَّا لاِنتِفَاعِهِ به، أَو لِنَفعِه لهُ ونحوُ ذلك.

- ولاَ بُدّ للعَبدِ مِن أَوقاتٍ يَنفَرِدُ بها بنَفسِهِ في دُعائِهِ وذِكرِه، وصَلاتِهِ وتَفكُّرِه، ومُحاسَبَةِ نَفسِه، وإِصلاَحِ قَلبِهِ، ومَا يَختَصُّ به مِنَ الأُمُورِ الَّتِي لاَ يُشرِكُهُ فِيهَا غَيرُه، فهَذِه يَحتاجُ فِيهَا إلَى انفِرَادِهِ بِنَفسِه، إمَّا في بَيتِهِ كما فعلَ طَاوُوسُ: "نِعمَ صَومَعة الرَّجُلِ بَيتُه، يَكُفُّ فِيهَا بَصَرَهُ ولِسانَه"، وإمَّا في غَيرِ بَيتِهِ.

فاختِيارُ المُخالَطَةِ مُطلقًا خَطأٌ، واختِيارُ الاِنفرادِ مُطلقًا خَطأٌ، وأمَّا مِقدارُ مَا يَحتاجُ إِليهِ كُلُّ إنسانٍ مِن هذا وهذَا، وما هو الأَصلَحُ لَهُ فِي كلِّ حَالٍ؛ فهذا يَحتاجُ إِلَى نَظَرٍ خَاصٍّ.ا.هـ، بل الإنسانُ علَى نَفسِهِ بَصِيرَةٌ.

5 - وَالأَكْلِ. (1)

6 - وَالنَّومِ. (2)

---

(1) وأمَّا "فُضُولُ الطَّعَامِ": فَهُو أَن يَأكُلَ الإنسَانُ فَوقَ مَا يَحتَاجُ إِلَيهِ بَدَنُه وقَد نَهَى اللهُ عَن ذَلِكَ حَيثُ يَقُولُ: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأَعْرَاف/31]، يَقولُ ابن القيِّم كمَا في بدائع الفوائد (821-820/2): "وأمَّا فُضُولُ الطَّعامِ فَهُوَ دَاعٍ إِلَى أنواعٍ كَثِيرةٍ مِنَ الشَّرِّ، فإنَّهُ يُحرِّكُ الجَوارِحَ إِلَى المَعَاصِي، ويُثقِّلُهَا عَنِ الطَّاعَاتِ، وحَسبُكَ بِهذَينِ شَرًّا، فَكَم مِن مَعصِيَةٍ جَلَبَهَا الشِّبَعُ، وفُضُولُ الطَّعَامِ، وكَم مِن طَاعَةٍ حَالَ دُونَهَا، فَمَن وُقِيَ شَرَّ بَطنِهِ فَقَد وُقِيَ شَرًّا عَظِيماً، وقال النَّبِيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: (مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِن بَطنٍ).ا.هـ [رواه أحمد (17186) والتِّرمذي (2380) وحسَّنه وابن ماجه (3349) وغيرُهم مِن حديث المِقدامِ بنِ مَعدِي كَرِب وحسَّنه الحافظ في الفتح (528/9) وصححه الألباني في الإرواء (1983) والصحيحة (2265)]".

ويَقُولُ في مَدارِج السَّالكين (1176/2) وَالْمُفْسِدُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ نَوْعَانِ:

1ـ **أَحَدُهُمَا مَا يُفْسِدُهُ لِعَيْنِهِ وَذَاتِهِ كَالْمُحَرَّمَاتِ**، وَهِيَ نَوْعَانِ:

ـ مُحَرَّمَاتٌ لِحَقِّ اللَّهِ؛ كَالْمَيتَةِ وَالدَّمِ، وَلَحمِ الخِنزِيرِ، وَذِي النَّابِ مِنَ السِّبَاعِ وَالْمِخلَبِ مِنَ الطَّيرِ.

ـ وَمُحَرَّمَاتٌ لِحَقِّ الْعِبَادِ؛ كَالمَسرُوقِ وَالْمَغْصُوبِ وَالْمَنْهُوبِ، وَمَا أُخِذَ بِغَيْرِ رِضَى صَاحِبِهِ، إِمَّا قَهْرًا وَإِمَّا حَيَاءً وَتَذَمُّمًا.

2ـ **وَالثَّانِي: مَا يُفْسِدُهُ بِقَدْرِهِ وَتَعَدِّي حَدِّهِ، كَالْإِسْرَافِ فِي الْحَلَالِ**، وَالشِّبَعِ المُفرِطِ، فَإِنَّهُ يُثقِلُهُ عَنِ الطَّاعَاتِ، وَيَشغَلُهُ بِمُزَاوَلَةِ مُؤنَةِ البِطنَةِ وَمُحَاوَلَتِهَا، حَتَّى يَظفَرَ بِهَا، فَإِذَا ظَفِرَ بِهَا شَغَلَهُ بِمُزَاوَلَةِ تَصَرُّفِهَا وَوِقَايَةِ ضَرَرِهَا، وَالتَّأَذِّي بِثِقَلِهَا، وَقَوَّى عَلَيهِ مَوَادَّ الشَّهوَةِ، وَطُرُقَ مَجَارِي الشَّيطَانِ وَوَسَّعَهَا، فَإِنَّهُ يَجرِي مِنَ ابنِ آدَمَ مَجرَى الدَّمِ، فَالصَّومُ يُضَيِّقُ مَجَارِيَهُ وَيَسُدُّ عَلَيهِ طُرُقَهُ، وَالشِّبَعُ يَطرُقُهَا وَيُوَسِّعُهَا، وَمَن أَكَلَ كَثِيرًا شَرِبَ كَثِيرًا، فَنَامَ كَثِيرًا، فَخَسِرَ كَثِيرًا .ا.هـ

(2) وأمَّا (فُضُولُ المَنَامِ): فَهُو أَن يَزِيدَ الإِنسانُ فِي النَّوم على القَدرِ الَّذِي يَحتَاجُ إِلَيهِ فِي رَاحَةِ بَدَنِه، فإذَا زَادَ علَى ذلِكَ حَدثَ بِهِ أَنواعٌ مِن الضَّرَرِ فِي الدِّينِ وَالدُّنيَا، فإنَّ الإِكثارَ مِنهُ مُضِرٌّ بِالقَلبِ مُولِّدٌ لِلغَفلَةِ عَن ذِكرِ اللهِ، مُثقِّلٌ لِلبَدنِ عَن طَاعَتِهِ، يُفَوِّتُ مَصَالِحَ الدُّنيَا أيضاً، ورُبَّمَا أَدَّى إلى تَفويتِ الصَّلواتِ الخَمسِ، وغَيرِهَا مِنَ الطَّاعاتِ كمَا هُو وَاقِعٌ كَثِيراً.

وقد ذكرَ ابنُ القيِّمِ في مدارج السَّالكين (1179/2) خمسَ مُفسِداتٍ لِلقَلبِ فَذَكَرَ مِنهَا: " المُفسِدُ الخَامِسُ: كَثْرَةُ النَّومِ؛ فَإِنَّهُ يُمِيتُ القَلبَ، وَيُثَقِّلُ البَدَنَ، وَيُضِيعُ الوَقتَ، وَيُورِثُ كَثرَةَ الغَفلَةِ وَالكَسَلِ، وَمِنهُ المَكرُوهُ جِدًّا، وَمِنهُ الضَّارُّ غَيرُ النَّافِعِ لِلبَدَنِ، وَأَنفَعُ النَّومِ مَا كَانَ عِندَ شِدَّةِ الحَاجَّةِ إِلَيهِ"، وَلَكِن القَدرَ الَّذِي يُنَاسِبُ النَّاسَ يَختَلِفُ بِاختِلافِ أَحوَالِهِم وأعمَارِهِم، والغَالِبُ فِي المُتوسِّطِ مِن النَّاسِ أَنَّهُ قَد يَنَامُ مِن سِتِّ سَاعاتٍ إِلَى ثَمانِ سَاعَاتٍ كما قال ابن القيِّم في زاد المعاد (161/1): "والأَطِبَّاءُ يَقُولُونَ؛ هُو ثُلُثُ اللَّيلِ والنَّهَارِ ثَمانِ سَاعَاتٍ."

فَإِنَّ هَذِهِ الفُضُولَ تَستَحِيلُ آلَامًا وَغُمُومًا وَهُمُومًا فِي القَلبِ، تَحصُرُهُ وَتَحبِسُهُ وَتُضَيِّقُهُ وَيَتَعَذَّبُ بِهَا، بَل غَالِبُ عَذَابِ الدُّنيَا وَالآخِرَةِ مِنهَا. فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مَا أَضْيَقَ صَدْرَ مَنْ ضَرَبَ فِي كُلِّ آفَةٍ مِنْ هَذِهِ الآفَاتِ بِسَهْمٍ، وَمَا أَنْكَدَ عَيشَهُ، وَمَا أَسْوَأَ حَالَهُ، وَمَا أَشَدَّ حَصرَ قَلبِهِ.

وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مَا أَنْعَمَ عَيشَ مَنْ ضَرَبَ فِي كُلِّ خَصلَةٍ مِنْ تِلكَ الخِصَالِ المَحمُودَةِ بِسَهمٍ، وَكَانَت هِمَّتُهُ دَائِرَةً عَلَيهَا، حَائِمَةً حَولَهَا. (1)

وإِذَا كَانَت كَثرَةُ النَّومِ مَذمُومَةً فَكَذَلِكَ فِي هَجرِ النَّومِ وَمُدَافَعَتِهِ آفَاتٌ عِظَامٌ، يُبَيِّنُ ذلكَ ابنُ القَيِّم فَيقُولُ فِي مدارج السالكين (1180/2-1181): وَكَمَا أَنَّ كَثْرَةَ النَّومِ مُورِثَةٌ لِهَذِهِ الآفَاتِ، فَمُدَافَعَتُهُ وَهَجرُهُ مُورِثٌ لِآفَاتٍ أُخرَى عِظَامٍ: مِن سُوءِ المِزَاجِ وَيُبسِهِ، وَانحِرَافِ النَّفسِ، وَجَفَافِ الرَّطُوبَاتِ المُعِينَةِ عَلَى الفَهمِ وَالعَمَلِ، وَيُورِثُ أَمرَاضًا مُتلِفَةً لَا يَنتَفِعُ صَاحِبُهَا بِقَلبِهِ وَلَا بَدَنِهِ مَعَهَا، وَمَا قَامَ الوُجُودُ إِلَّا بِالعَدلِ، فَمَنِ اعتَصَمَ بِهِ فقَد أَخَذَ بِحَظِّهِ مِن مَجَامِعِ الخَيرِ، وَبِاللَّهِ المُستَعَانُ.

قال ابن القيِّم في زاد المعاد (343/4- 353): فَصلٌ: فِي تَدبِيرِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَمرِ النَّومِ واليَقظَةِ؛ مَن تدبَّر نَومَهُ ويَقظَتُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ وَجدَه أعدلَ نَومٍ، وأَنفعَه للبَدَنِ والأَعضَاءِ والقُوَى، فإنَّه كان يَنامُ أوَّلَ اللَّيل، ويَستَيقِظُ فِي أوَّلِ النِّصفِ الثَّانِي، فيَقُومُ ويَستَاكُ، ويَتوضَّأُ ويُصَلِّي مَا كَتبَ اللهُ لهُ فَيَأخُذُ البَدَنُ والأَعضَاءُ والقُوَى حَظَّهَا مِن النَّومِ والرَّاحَةِ وحَظَّهَا مِنَ الرِّيَاضَةِ مَعَ وُفُورِ الأَجرِ وهذَا غَايَةُ صَلَاحِ القَلبِ والبَدَنِ، ولَم يَكُن يَأخُذ مِنَ النَّومِ فَوقَ القَدرِ المُحتَاجِ إِلَيهِ، ولاَ يَمنَعُ نَفسَهُ مِنَ القَدرِ المُحتَاجِ إِلَيهِ مِنهُ، وكَانَ يَفعَلُه علَى أكمَلِ الوُجُوهِ...، إلى أن قال: قِيلَ: نَومُ النَّهارِ ثَلاثَةٌ: خُلُقٌ، وَخُرْقٌ، وحُمْقٌ، فَالخُلُقُ: نَومَةُ الهَاجِرَةِ، وهِيَ خُلُقُ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، والخُرقُ: نَومَةُ الضُّحَى، تُشغِلُ عَن أَمرِ الدُّنيَا وَالآخِرَةِ، وَالحُمقُ: نَومَةُ العَصرِ.ا.هـ، وانظُر تَتِمَّتَهُ فإنَّهُ مُفِيدٌ لِمَن أرادَ أَن يَنتَفِعُ بِنَومِهِ فِي دُنيَاهُ وأُخرَاهُ.

(1) يَقُولُ ابنُ القيِّم في كتاب الداء والدواء ص (540): "إذا عُرِفَ هذا؛ فاللَّذةُ والسُّرُورُ والفَرحُ أمرٌ مَطلُوبٌ فِي نَفسِهِ، بَل هُو مَقصُودُ كُلِّ حَيٍّ، وإذا كانت اللَّذَّة المَطلُوبة لِنَفسِها؛

- فَهِيَ تُذَمُّ إذا أعقَبَت ألمًا أعظمَ مِنهَا، أَو مَنعَت لَذَّةً خَيرًا وأجَلَّ مِنهَا، فَكَيفَ إذَا أعقَبَت أعظَمَ الحَسَرَاتِ، وفَوَّتَت أعظمَ اللَّذَّاتِ والمَسَرَّاتِ.

- وتُحمَدُ إذا أعَانَت علَى لَذَّةٍ عَظِيمَةٍ دَائِمَةٍ مُستَقِرَّةٍ لاَ تَنغِيصَ فِيهَا ولاَ نكَدَ بِوَجهٍ مَا، وهي لَذَّةُ الآخِرَةِ ونَعِيمُها، وطِيبُ العَيشِ فِيهَا.

..واللهُ سُبحانَه خلَقَ الخَلقَ لِيُنِيلَهُم هذِهِ اللَّذَّة الدَّائمَة في دَارِ الخُلدِ، لَذَّاتُهَا دَائِمَةٌ، ونَعِيمُهَا خَالصٌ مِن كُلِّ كَدَرٍ وأَلَمٍ، وفِيهَا مَا تَشتَهِيهِ الأَنفسُ مِن قُرَّةِ أَعيُنٍ، بَل فِيهَا مَا لاَ عَينٌ رَأَت، ولاَ أُذُنٌ سَمِعَت، ولاَ خَطَرَ علَى قَلبِ بَشَرٍ، وهذا المعنَى الَّذي قَصدَهُ النَّاصِحُ لِقَومهِ بِقولِه: ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ [غافر/38-39]، فأخبَرَ أنَّ الدُّنيا متاعٌ يُستَمتَعُ بِهَا إلَى غَيرِهَا، وأنَّ الآخرةَ هي المُستَقَرُّ، وإذا عرفَ أنَّ لذَّات الدُّنيا ونَعِيمَهَا مَتاعٌ ووَسِيلةٌ إلَى لذَّاتِ الآخِرةِ، ولِذلِكَ خُلِقَت

ـ فَلِهَذَا نَصِيبٌ وَافِرٌ مِنْ قَولِهِ: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ الانفطار: 13.
ـ وَلِذَلِكَ نَصِيبٌ وَافِرٌ مِنْ قَولِهِ: ﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ الانفطار: 14.

وَبَينَهُمَا مَرَاتِبُ مُتَفَاوِتَةٌ لَا يُحصِيهَا إِلَّا اللهُ.

وَالمَقصُودُ:

ـ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ أَكمَلُ الخَلقِ فِي كُلِّ صِفَةٍ يَحصُلُ بِهَا انشِرَاحُ الصَّدرِ، وَاتِّسَاعُ القَلبِ، وَقُرَّةُ العَينِ، وَحَيَاةُ الرُّوحِ، فَهُوَ أَكمَلُ الخَلقِ فِي هَذَا الشَّرحِ وَالحَيَاةِ وَقُرَّةِ العَينِ مَعَ مَا خُصَّ بِهِ مِنَ الشَّرحِ الحِسِّيِّ.

ـ وَأَكمَلُ الخَلقِ مُتَابَعَةً لَهُ(1)، أَكمَلُهُمُ انشِرَاحًا وَلَذَّةً وَقُرَّةَ عَينٍ، وَعَلَى حَسَبِ مُتَابَعَتِهِ يَنَالُ العَبْدُ مِنَ انشِرَاحِ صَدرِهِ وَقُرَّةِ عَينِهِ وَلَذَّةِ رُوحِهِ مَا يَنَالُ.

الدُّنيا ولذَّاتُها، فكلَّ لذَّةٍ أعَانَت على لذَّة الآخِرةِ وأَوصَلَت إِلَيهَا لَم يُذمَّ تَناوُلُها، بل يُحمَدُ بِحسَبِ إِيصَالِهَا إِلَى لذَّة الآخِرَةِ..".ا.هـ، ويَقولُ الشَّيخ صالح العُصيمي في قصيدته المعَاني الحِسان في نُصحِ أهل الإيمان البيت (3) - (7):

إن كَانَ جِسمُكَ بِالغِذَاءِ مُنَعَّمًا	كَيفَ السَّعَادَةُ دُونَمَا عِرفَانِ
مَن كَانَ يَفقِدُ رَبَّهُ فِي قَلبِهِ	أَنَّى يَذُوقُ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ
كُلُّ المَطَالِبِ قَد تُنَالُ بِدِرهَمٍ	إلاَّ المَصِيرُ لِمَنزِلِ الإِحسَانِ
فَيَنَالُهُ مَن كَانَ يَملأُ قَلبَهُ	حُبُّ الإِلَهِ مُعَطِّرُ الأَركَانِ
وَرَجَاؤُهُ أَبَدًا مُؤَمِّلَ رَبِّهِ	وَمَخَافَةُ التَّعظِيمِ لِلدَّيَّانِ

(1) المُتابَعةُ له صلَّى الله عليه وسلم: فِي حركَاتِهِ وسَكنَاتِهِ الظَّاهِرةِ والبَاطِنَةِ ممَّا جعلَهُ الله سُبحَانَه تَفصِيلاً لمَا تَعبَّدَ اللهُ تعَالى بِهِ عِبَادَه.

فَهُوَ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ ـ فِي ذِروَةِ الكَمَالِ مِنْ شَرحِ الصَّدرِ وَرَفعِ الذِّكرِ وَوَضعِ الوِزْرِ [1]، وَلِأَتبَاعِهِ مِنْ ذَلِكَ بِحَسَبِ نَصِيبِهِمْ مِنَ اتِّبَاعِهِ، وَاللهُ المُستَعَانُ.

وَهَكَذَا لِأَتبَاعِهِ نَصِيبٌ مِنْ حِفْظِ اللهِ لَهُمْ، وَعِصمَتِهِ إِيَّاهُمْ، وَدِفَاعِهِ عَنْهُمْ، وَإِعزَازِهِ لَهُمْ، وَنَصْرِهِ لَهُمْ، بِحَسَبِ نَصِيبِهِمْ مِنَ المُتَابَعَةِ، فَمُستَقِلٌّ وَمُستَكْثِرٌ.

فَمَنْ وَجَدَ خَيرًا فَلْيَحمَدِ اللهَ.

وَمَنْ وَجَدَ غَيرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفسَهُ [2].

وهِيَ وَاجِبَةٌ يقولُ تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأَعْرَاف/158]

(1) كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشَّرْح/2].

(2) هذا اقتِباسُ جُزءٍ مِنَ الحَدِيثِ الطَّويل الَّذي رواه مُسلِم في صحيحه (2577) مِن حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه وفيه: " يا عِبَادي إنَّما هي أعمالكم أُحصِيهَا لَكُم ثُمَّ أُوفِّيكُم إيَّاهَا، فمَن وَجَدَ خَيرًا فَليَحمَدِ اللهَ، ومَن وجَدَ غَيرَ ذَلِكَ فلا يَلُومَنَّ إلاَّ نَفسَهُ"، وهو الحديثُ (24) مِن الأربَعِينَ النَّووِيَّة.

أُرجُوزَةُ نَثرُ الزَّهرِ فِي أَسبَابِ انشِرَاحِ الصَّدرِ

نظم

مُحمَّد آل رِحَاب

بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ مُحَمَّدُ هُو ابنُ أَحمَدَا [1] المَدَنِيُّ، القَاهِرِي مَحتِدا

الحَمدُ لِلَّهِ مُزِيلِ الهَمِّ [2] وَكَاشِفِ الكَرْبِ وَكُلِّ غَمِّ

ثُمَّ الصَّلاَةُ مَعْ سَلاَمٍ أَقوَمِ [3] عَلَى النَّبِيِّ المُصطَفَى المُكَرَّمِ

وَآلِهِ وَصَحبِهِ أُولِي التُّقَى [4] ومَن بِحُبهم إِلَى العُلَى ارتَقَى

وَبَعدُ إِنَّ هَذِهِ أُرجُوزَةٌ [5] لَطِيفَةٌ فِي بَابِهَا وَجِيزَةٌ

سَمَّيتُهَا - يَا صَاحِ - (نَثْرَ الزَّهْرِ [6] فِي ذِكرِ أَسبَابِ اِنشِرَاحِ الصَّدرِ)

مِمَّا أَتَى فِي "الزَّادِ" لِابنِ القَيِّمِ	[7]	أَنعِم بِهِ، أَنعِم به وَأَنعِمِ
عَلَيهِ رَحمَةُ الإِلَهِ البَرِّ	[8]	وَكُلِّ عَالِمٍ جَلِيلٍ حَبْرِ
شَجَّعَنِي لِنَظمِهَا الَّذِي أَرَى	[9]	مِن ضِيقِ صَدرِ جُمْلَةٍ مِنَ الوَرَى
أَيضاً شِكَايَةٌ مِنَ الأَصحَابِ	[10]	أَتَت، فَذَا النَّظمُ لَهَا جَوَابِي
فَرَّجَ رَبُّنَا جَمِيعَ الهَمِّ	[11]	وَالغَمِّ وَالحُزْنِ بِكُلِّ القَومِ
أَعظَمُهَا "التَّوحِيدُ وَالإِيمَانُ"	[12]	وَ"العِلمُ" مَعْ "إِنَابَةٍ" أَبَانُوا
وَ"حُبُّ مَولاَنَا مَع الإِقبَالِ	[13]	عَلَيهِ رَاغِباً بِكُلِّ حَالِ"
مُنَعَّمًا بِالقُرْبِ وَالتَّعَبُّدِ	[14]	لِلَّهِ فِي الغَيبِ وَكُلِّ مَشهَدِ

دَوَامُ ذِكْرِهِ بِلاَ انْقِطَاعِ [15] فِي كُلِّ مَوطِنٍ لِلانتِفَاعِ

لَهُ مِنَ التَّأْثِيرِ شَيءٌ كَالعَجَبْ [16] لِمَن أَرَادَ شَرحَ صَدرٍ وَأَحَبّْ

كَذَلِكَ الإِحسَانُ لِلخَلقِ بِمَا [17] أَمكَنَهُ مِن مَالٍ او جَاهٍ نَمَا

وَنَفعُهُم بِجِسمِهِ وَمَا يَرَى [18] مُنَاسِباً قَدَّمَه بِلاَ امتِرَا

كَذَلِكَ الإِقدَامُ وَالشَّجَاعَةُ [19] فِي الخَيرِ لاَ فِي الشَّرِّ يَا جَمَاعَةُ

إِنَّ الجَبَانَ يَا أَخَا الإِقدَامِ [20] مِن أَتعَسِ النَّاسِ عَلَى الدَّوَامِ

:- أَيضاً، وَمِن أَسبَابِهِ - يَا مَن عَقَلْ [21] تَنقِيَةُ القُلُوبِ مِن كُلِّ دَغَلْ

مِن كُلِّ مَا يُذَمُّ مِن صِفاتِ [22] طَهِّرْ- أَخِيْ - الفُؤَادَ مِن آفَاتِ

أيضاً، وَتَرْكُكَ الفُضُولَ مِنْ نَظَرْ	[23]	تَكَلُّمٍ أَو اِسْتِماعٍ ذِي ضَرَرْ
وخُلْطَةِ الأَنَامِ وَالطَّعَامِ	[24]	وَحَاذِرَنَّ كَثْرَةَ المَنَامِ
فَإِنَّهَا - صَاحِ - سُمُومُ القَلبِ	[25]	جَالِبَةُ الرَّدَى وَكُلِّ كَرْبِ
هَذَا وَكُلُّ تَابِعٍ وَمُقتَفِي	[26]	هَدْيَ النَّبِي الْمصطَفَى الْمُشَرَّفِ
لَهُ مِنَ الشَّرْحِ نَصِيبٌ وَافِرُ	[27]	بِحَسَبِ اتِّبَاعِهِ يَا مَاهِرُ
هَذَا وَمِن أَسبَابِ ضِيقِ الصَّدرِ	[28]	إِعرَاضُنَا عَن رَبِّنَا ذِي البِرِّ
وَالبُخلُ وَالجَهلُ مَع الضَّلاَلِ	[29]	وَحُبُّ مَا سِوَاهُ مَعْ إِخلاَلِ
بِحُبِّه أَو إِنْ مَحَبَّةَ السِّوَى	[30]	قَدَّمتَهَا عَلَى الَّذي شَقَّ النَّوَى

فَالْمُؤْمِنُونَ حُبُّهُم لِلَّهِ	[31]	لَيسَ لَهُ نِدٌّ وَلاَ مُضَاهِي
بَل هُم أَشَدُّ لِلإِلَهِ حُبًّا	[32]	وَرَغبَةً فِيهِ وَمِنهُ قُرْبَا
وَالْجُبْنُ مَع مَا مَرَّ مِن سُمُومِ	[33]	وَهُا هُنَا قَد اِنتَهَى مَنظُومِي
نَظَمتُهُ بِطَيبَةَ الْمُنَوَّرَهْ	[34]	وَأَسأَلُ اللهَ الهُدَى وَالْمَغفِرَهْ
والشَّرْحَ لِلصَّدرِ عَلَى الدَّوَامِ	[35]	وَالخَتمَ بِالْحُسْنَى عَلَى الإِسلاَمِ

الخـاتمـة

. أسـأل الله تعـالى حسنها .

أَقُولُ مُتَمِّمًا نَظمَ أَخِينَا مُحمَّد آل رِحَاب

وعَلَى سُنَّةِ خَيرِ الأَنَامِ   فيَا فَوزَ مَن حَازَ ذَا المَرَامِ

جَنَّاتُ عَدنٍ دَارُ المُقَامِ   والنَّـعِيمِ دَومًا بِلاَ انصِرَامِ

والله تعالى أعلى وأعلم

فهرس المحتويات

المَوضُوعَات	الصَّفحَة
المُقدّمة	7-5
التَّعريف بِالمؤلِّف	16-9
التَّعريف بِالمؤلَّف	21-18
المَتن	39-23
أُرجُوزَةُ نَثرُ الزَّهرِ فِي أَسبَابِ انشِرَاحِ الصَّدرِ	47-41
الخَاتِمة	49